# أزمة كورونا
# وانعكاساتها على علم الاجتماع والعلوم السياسية والعلاقات الدولية

## الباحثون المشاركون


د. أسماء حسين ملكاوي
أ.د. حسن رشيق
د. مشاري حمد الرويح
أ.د. مصطفى عمر التير
أ.د. لاهاي عبدالحسين
أ.د. مصطفى بخوش
أ.د. التجاني عبدالقادر حامد



مركز ابن خلدون للعلوم الإنسانية والاجتماعية / جامعة قطر
Ibn Khaldon Center for Humanities and Social Sciences/ Qatar University

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر
بالضرورة عن وجهة نظر مركز ابن خلدون

مركز ابن خلدون للعلوم الإنسانية والاجتماعية
Ibn Khaldon Center for Humanities and Social Sciences

# أزمة كورونا
## وانعكاساتها على علم الاجتماع والعلوم السياسية والعلاقات الدولية


### الباحثون المشاركون

د. أسماء حسين ملكاوي
أ.د. مصطفى عمر التير
أ.د. حسن رشيق
أ.د. لاهاي عبدالحسين
أ.د. التجاني عبدالقادر حامد
د. مشاري حمد الرويح
أ.د. مصطفى بخوش

# الفهرس

## أولًا: أزمة كورونا وانعكاساتها على علم الاجتماع


**كورونا وعلم الاجتماع: أسئلة جديدة ..... 7**
د. أسماء حسين ملكاوي

**أسئلة بحثية تطرحها جائحة كورونا على علماء الاجتماع ..... 30**
أ.د. مصطفى عمر التير

**ما بين العولمة والحياة اليومية: تأملات متجددة ..... 42**
أ. د. حسن رشيق

**سجن الحماية: جائحة كورونا، مقاربة اجتماعية ..... 50**
أ.د. لاهاي عبد الحسين


## ثانيًا: أزمة كورونا وانعكاساتها على العلوم السياسية والعلاقات الدولية


**العلوم السياسية: مرحلة ما بعد كورونا ..... 61**
أ.د. التجاني عبدالقادر حامد

**أثر أزمة كورونا على دراسة العلاقات الدولية بين الحل، التأمل، وإعادة اكتشاف الذات ..... 69**
د. مشاري حمد الرويح

**انعكاسات أزمة كورونا الحديثة في العلوم السياسية ..... 77**
أ.د. مصطفى بخوش

بسم الله الرحمن الرحيم

# أولًا: أزمة كورونا وانعكاساتها على علم الاجتماع

# كورونا وعلم الاجتماع: أسئلة جديدة

د. أسماء حسين ملكاوي

# كورونا وعلم الاجتماع: أسئلة جديدة

د. أسماء حسين ملكاوي

تمر المجتمعات البشرية بلحظات تاريخية فارقة، وهي تواجه جائحة كورونا ذات الخصائص الثلاث التي تجعل منها موضوعًا قابلًا للدرس العلم-اجتماعي، تقتحم فيه أعماق علم الاجتماع أو تلامس حدوده المتداخلة مع تخصصات أخرى، كنمط الانتشار المتدرج من المحلية إلى العالمية، وعمق التأثير الذي طال الأنساق جميعها في بنيتها المادية والوظيفية، وتأثيرها في رؤية العالم والتصورات الخاصة بالحياة والوجود والمصير الإنساني.

وإذا كانت العلوم قد نشأت بفعل الأحداث الجسام، وتطوّرت عن ثورات علمية تلت استعصاء فهم الحالات الشاذة وتفسيرها وفق التصورات الراسخة؛ فإن هذا حال علم الاجتماع وهو يواجه تحديات ناشئة عن التحولات العميقة في بنية المجتمع وأشكال التجمعات وأنماط الحياة والتفاعلات، ويستنهض العلماء لجعلها فرصة يعيدون فيها النظر بمسلّمات مراحل تاريخية سابقة أو بمجتمعات مغايرة، وما أحوجنا إلى ذلك والحدث عالمي طاغٍ هذه المرة، لاسيما في هذا الجزء من العالم الذي آن له فرض حضوره على الساحة العلمية في إطار العلوم الاجتماعية.

سأعرض في هذه الورقة المشهد الذي يبدو عليه العالم في حدود ما اطّلعت عليه وأحاول فهمه حتى اللحظة، وأطرح كل ما يخطر في الذهن

مـن تسـاؤلات، وأضعهـا أمـام علـم الاجتـماع وعدتـه النظريـة والمنهجيـة وأصحابه، رغـم مـا في الأجـواء مـن الحـيرة واللايقـين بحقيقـة مـا يحـدث ومآلاتـه، وقـد يصلـح لمـا بعـد كورونـا، أو ربمـا يفقـد أهميتـه، وذلـك رهـن بمـا ستتكشـف عـن تلـك الأزمـة مـن تطـورات. وظنـي أن تحـولًا في اتجاهـات واهتمامـات وأسـئلة علـم الاجتـماع لا بـد أن يحـدث بفعـل جائحـة كورونـا، ومـا أحدثتـه مـا صدمـات وتحـولات اجتماعيـة.

يتوسـط المجتمـع- الموضـوع الرئيـسي لعلـم الاجتـماع- عالمـين كبيريـن؛ الطبيعـي الصلـب ومـا فيـه مـن مجـرات وذرات، والذهنـي اللـيّن ومـا فيـه مـن تصـورات وأفـكار ومعتقـدات، فإنـه يتلقـى الصدمات الناشـئة في أحدهـما، ويجعله مسرحًـا للكـوارث الطبيعيـة والثـورات الفكريـة، وقـد تسـلّلت إليـه مـن عـالم الطبيعـة فيروسـات تدخـل أجسـام أفـراده وتحـدث فيـه آثـارًا مدمـرة، وهـو ذو طبيعـة شرسـة في الانتقـال والانتشـار مـن خـلال أهـم مـا يجعـل المجتمـع مجتمعًـا (الاجتـماع البـشري)، فرضـت معهـا تدابـير «التباعـد الاجتماعـي»، فضربـت البنـاء المجتمعـي في الصميـم، وهـو يصـارع للخـلاص مـن الـداء، مسـتعينًا بعـالم الأفـكار ومـا فيـه مـن تصـورات ورؤى ومعتقـدات، بـدأت بدورهـا بالململـة وقـد تحـدث معهـا صدمـة قادمـة ستتكشـف ملامحهـا في قـادم الأيـام، رغـم يقنـي أن ذلـك رهـن الإرادة المتوثبـة للعمـل والتغيـير، وبسـبب موقـع العـالم الاجتماعـي الوسـيط، جعـل للعلـم الـذي يدرسـه أجنحـة تمتـد إلى العـوالم الصلبـة واللينـة، وتخصصاتـه الفرعيـة تمتـد مـن علـم اجتـماع الفضـاء[1] وعلـم الاجتـماع الطبـي إلى علـم الاجتماع

(1) Löw, M.and others, The sociology of space: Materiality, social structures, and action. Springer, 2016.

الديني وعلم الاجتماع النفسي، ذلك أنه يجعل أي اجتماع بشري يربو عن الاثنين مثار اهتمامه وعنايته.

## 1- الفرد والأسرة والمجتمع: التباعد الاجتماعي والعزلة

اختفت فجأة جميع أشكال التجمعات البشرية خارج إطار الأسرة، وتلاشى المجتمع لصالح الانكفاء على الذات، والنكوص إلى الوحدة الأصغر في مكوناته، وفي حالة فريدة من تكبيل الجسد، زادت الريبة من كافة أشكال التقارب، خالط ذلك شعور بالخطر والخوف من انتقال العدوى والمرض، كل ذلك في مجتمعات لطالما قامت على نمط ثقافي يعزز الثقة والتقارب، ولئن طالت تدابير التباعد والعزلة، فإنه يُخشى أن تجعل التجمعات البشرية اليومية إرثًا من الماضي، ولأننا كائنات اجتماعية بطبعها ظهرت أشكال جديدة من محاولات التكيّف كالإطلالات الصادحة بالغناء أو التكبيرات من شرفات المنازل؛ وغير ذلك كثير مما حفلت به مواقع التواصل الاجتماعي.

بدأ علم الاجتماع مع دوركايم بتعظيم دور المجتمع وجعله مهيمنًا على الفرد في صياغة حياته وسلوكياته، ومع فيبر واهتمامه بالفعل الاجتماعي ومعانيه، طوّر جورج هربرت ميد وبقية منظري التفاعلية الرمزية تصورًا يمنح الفرد دورًا محوريًا في إعطاء معنى للعالم الاجتماعي، ومع أصحاب مدرسة «البناء الاجتماعي للواقع» أصبحت تصورات الفرد وأفكاره قادرة على صياغة واقعه الاجتماعي.

ولعل اللجوء إلى **علم النفس الاجتماعي** يكون مدخلًا لفهم علاقة الفرد بالمجتمع باعتبارهما وجهين لعملة واحدة في أوقات الجوائح، التي يصبح

فيها الفرد قادرًا حقًا على صنع واقعه بما يملك من أدوات الوعي الكافية لذلك، وما يشكله الإحساس بالمسؤولية تجاه الآخرين من ضغوطات نفسية، وفي حالة نادرة من العزلة أصابت أكثر من ثلث سكان العالم[2]، لا بد أن تجري خلالها إعادة تشكيل للذات والجسد كمفاهيم ذات أبعاد اجتماعية، كما أنها تثير أفكارًا حول الخلاص الفردي والثقة بالآخرين، والموت، والخوف من تهديد غير مرئي، وكذلك تدابير التباعد الاجتماعي التي شلّت الحركة الاجتماعية في المجالات العامة، وأطاحت بالمسافات الاجتماعية- الحميمية والشخصية والاجتماعية والعامة- وقلبت مقاييسها، ويلزمنا كذلك فهم نزوع الناس إلى التندر وحبك النكات للتعبير عما يجري من مفارقات مثيرة، وهذا يحيلنا إلى تخصص فرعي آخر بالضرورة.

وفي **علم اجتماع اللغة**، تُطرح اللغة كظاهرة اجتماعية تتأثر وظائفها التفاعلية وفق التحولات الاجتماعية، وأثناء الجائحة نلحظ بروز تعبيرات ومفاهيم جديدة في المجتمعات عند التعامل اليومي مع الجائحة وفهمها والتكيّف مع تدابيرها المفروضة على المستوى الجمعي، وبدراستنا للتعقيدات اللغوية والتواصلية للجائحة، من خلال المفاهيم مثل «التباعد الاجتماعي» و«الوباء» و«التعقيم» و«الحجر الصحي» و«العزل المنزلي» و«أعراض المرض» و«الحياة الطبيعية» وغيرها، نستطيع فهم التمايزات الاجتماعية، ومستوى الوعي الصحي، وآليات التعامل مع المرض، واستراتيجيات التكيّف، وطرق

---

(2) MIA JANKOWICZ, More People Are Now in ‹Lockdown› Than Were Alive During World War II, BUSINESS INSIDER, 25 MARCH 2020: https://www.sciencealert.com/one-third-of-the-world-s-population-are-now-restricted-in-where-they-can-go

التعامل معها، كما تكشف لنا عن تفشي الخرافات والأفكار الزائفة حول المرض، آخذين بعين الاعتبار أن اللغة وهي تمارس دورها في التعبير عن المشاعر الجماعية ما عادت وجاهية، إذ مالت الكفة بشكل صارخ لصالح أشكال الفعل التواصلي الرقمي، وما يتطلبه ذلك من عناية أكبر بالتعابير المستخدمة، وهي تفصح عن معاني انفصلت عن علاماتها الدلالية.

وفي **علم اجتماع الحياة اليومية** ودراسة التفاعلات اليومية بالاستعانة بالعدة النظرية والمنهجية الاثنوميثودولوجية، قد يكشف هذا العلم عن معاني سعي الناس إلى ابتكار حياة طبيعية جديدة قابلة للعيش، بعدما شهدوا انهيارًا في بنية الحياة السابقة، وما حصل من تبدل سريع في العادات اليومية والأعراف الاجتماعية ذات الثبات النسبي، كالعلاقة بين الجيران، واحترام كبار السن، وحفظ المسافات الاجتماعية، والكرم والضيافة، وغيرها. وما يأخذه المريض من تدابير يومية لحفظ نفسه وأهله من المرض خوفًا من وصمة اجتماعية تتربص به، ما جعل بعضهم يخفون حقيقة مرضهم.

وقد يعين أصحاب منظور «**البناء الاجتماعي للواقع**» في دراسة إمكان التحكم بشكل العلاقات الاجتماعية وتنظيمها وفق التصورات الجديدة، وربما يشهد **علم اجتماع الجسد**- وهو يمشي على استحياء لمعاينة تأثر أجسادنا بالعوامل والمؤثرات الاجتماعية- دفعة قوية وهو يتعامل مع بيانات جديدة في زمن الأوبئة والحجر والتباعد الاجتماعي الجسدي.

أما في **علم اجتماع الأسرة**، وهي تعيش مجدها الذهبي وموقعها الهام وتقوم بوظيفتها المركزية في حفظ بناء المجتمع وأبناءه، نتذكر كيف

كانت الأسرة العربية تواجه تحديات عظيمة داخلية وخارجية لتغيير ملامحها وتأليب مكوناتها بعضها على بعض، وقد غدت مع الجائحة ملاذًا للجميع من نساء وأطفال ورجال وشيوخ، فهل حقًا ما زالت أسرنا بخير؟ وكيف كان أداؤها أثناء الحجر الصحي؟ وهل واجهت ما واجهته أسر في مواقع أخرى من العالم من أزمات ناتجة عن الاحتكاك المباشر بين أفرادها[3] من خلافات وطلاق؟ وكيف ساهمت في مدّ بقية أنساق المجتمع حين استوعبت وظائفها في العمل والتعليم وغيره؟ كيف تبدلت الوظائف والأدوار داخل الأسرة وبقية الأنساق الاجتماعية ضمن الأطر الرسمية وغير الرسمية في مواجهة الجائحة؟

أظن أن **البنائية الوظيفية** ستشهد عودة قوية، إذا ما ثبت نجاح التضامن الاجتماعي داخل الأسر والمجتمعات، دون أن يعني ذلك أفول التصورات الصراعية، فالوجود الاجتماعي لا يحتمل أحد لونين، وقد نضطر إلى مواجهة صراعاتنا هذه المرة بمنظور وظيفي، أو العكس! وقد نحتاج إلى أكثر من منظور لدراسة وفهم ما يجري داخل البيوت والأسر في هذه الأثناء وقد

---

(3) تحدثت مصادر صحفية مثل نيويورك تايمز عن ازدياد في الخلافات الأسرية وارتفاع نسب الطلاق في الصين ودول أوروبا وأمريكا الشمالية أثناء العزل المنزلي (covidivorce):
https://www.nytimes.com/2020/03/27/world/coronavirus-lockdown-relationships.html

كما شدّدت لجنة الأمم المتحدة الاجتماعية والاقتصادية لغربي آسيا على أنّ ظاهرة العنف المنزلي والتحديات الاجتماعية التي تواجهها النساء والفتيات في المنطقة العربية قد ازدادت سوءا نتيجة فيروس كورونا، يمكن مطالعة الدراسة عبر الرابط التالي:
https://www.unescwa.org/sites/www.unescwa.org/files/20-00132_gpid_pb_ar_apr3.pdf

غـدت سـاحة للجـزء الأكـبر مـن الفعـل الاجتماعـي، وتحولـت مـن مجـال خـاص إلى مجـال عـام يطـل منـه الملايـين عـلى العـالم وهـم يمارسـون أدوارهـم ووظائفهـم عـن بعـد! [4]

يبـدو أن أنشـطة التعلـم والعمـل عـن بعـد ستسـتمر بعـد كورونـا ولـو بشـكل جـزئي وانتقـائي ريثـما يتـم اعتمادهـا أساسًـا لجميـع مـا يمكـن منهـا[5]، وعـلى علـماء الاجتـماع الانتبـاه إلى التحـولات التـي سـتطرأ عـلى تصميـم البيـوت لتكـون قابلـة لاسـتيعاب وظائفهـا الجديـدة، وهـل ذلـك ممكـن في عالمنـا العـربي الـذي تـرك لمهنـدسي البنـاء هندسـة حيـاة وأنشـطة كثـير مـن الأسر التـي تشـتري شـققًا جاهـزة وفقًـا لميزانياتهـا لا لحاجاتهـا ووظائفهـا، وذلـك في انقـلاب على سـيرة أجدادهـم الذيـن كانـوا يصممـون مسـاكنهم وفقًـا لبيئاتهـم وأنشـطتهم الداخليـة والخارجيـة، ربمـا نشـهد إعـادة نظـر بتوزيـع الفراغـات الداخليـة والمسـاحات الخارجيـة وفقًـا للحيـاة الطبيعيـة الجديـدة القادمـة التـي يجـب علينـا البـدء بتصميمهـا.

---

(4) Enrique Dans, As Covid-19 Forces Millions Of Us To Work From Home, Which Are The Best Tools For The Job? Forbes, Mar 27, 2020, https://www.forbes.com/sites/enriquedans/2020/03/27/as-covid-19-forces-millions-of-us-to-work-from-home-which-are-the-best-tools-for-thejob/#19e8849b61e0

(5) Alex Hern, Covid-19 could cause permanent shift towards home working, the guardian, 13 Mar 2020, https://www.theguardian.com/technology/2020/mar/13/covid-19-could-cause-permanent-shift-towards-home-working

## 2 - ازدهار المجتمعات الرقمية

لسنا حديثي عهد بالرقمنة إذ تسللت إلى مجتمعاتنا نهاية تسعينيات القرن الماضي، وازدهرت بظهور مواقع التواصل الاجتماعي مطلع العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين، وتتصدر حاليًا المشهد العام بكليته[6] باحتضانها كافة أشكال الأنشطة الحياتية اليومية الهامة، وحفظت لنا نزعتنا نحو التقارب، وغريزتنا نحو الاجتماع والتواصل وهي تشهد مع جائحة كورونا أكبر عمليات التواصل حجمًا وكثافة منذ ظهورها، وكأن ما كنا نستعد له منذ عقود جاء وقته الآن.

وهنا يمكن **لعلم الاجتماع الرقمي** كموضوع ناشئ لم يجد له مكانًا في جامعاتنا العربية بعد؛ أن يفرض وجوده بطرح التساؤلات حول التفاعلات الاجتماعية الرقمية، والشبكات الاجتماعية الجديدة الناشئة حول التعليم عن بعد، والعمل عن بعد، والتسوق الرقمي، والاجتماعات العائلية عبر الإنترنت، وتخفيف آثار العزلة والتباعد، ومدى جاهزية الدول والمجتمعات للتحول الرقمي المفاجئ. قد تحتاج مقاربات **يورغن هبرماس** في المجال العام وأخلاقيات التواصل إلى تفحص جديد وقد اختفت المجالات العامة لا بضغط الأنظمة السياسية، ولكن بسياسات التباعد والحجر الصحي. هل ما زالت وسائل الإعلام تعيد تعريف ماهية العالم الذي نعيش به؟ أم أن **لجان بورديار** رأيًا آخر في «عالم الواقع المفرط» وقد فرض نفسه تحت تهديد الخطر الوجودي؟

---

(6) تظهر الإحصائيات المتعلقة بارتفاع نسبة استخدام الأجهزة الإلكترونية بسبب فيروس كورونا حول العالم، فقد ارتفعت نسبة استخدام الهواتف الذكية 70%، والحواسيب المحمولة بنسبة 40%. https://www.statista.com/statistics/1106607/device-usage-coronavirus-worldwide-by-country/

تخوض البشرية في وقتنا الحالي تجارب غنية ستفرز تحولات سريعة تحتاج في الوضع الطبيعي إلى عشرات السنين، ويبدو أن هذه التجارب الغنية ستؤسس لواقع جديد تغدو فيه الرقمنة خيارًا مفضلًا في التعليم والعمل، ذلك يحتاج إلى دراسات علمية لاستطلاع ما يجري في القطاعات كافة، وتقييمه، وتوجيهه نحو خيارات أفضل، تأخذ بعين الاعتبار رغبة المجتمعات من جهة، وإنجازات رأسمالية متراكمة للعالم «الحديث» الذي عرفناه من جهة أخرى، إذ تشير التوقعات أن كورونا قد تحدث الصدمة التي احتاجها كثيرون لإيقاع التغيير الذي طالما قاتل كثيرون من أجله في مجالات الاجتماع والبيئة والأعمال وغيرها، بحثّ الخطى سريعًا نحو التقنيات الجديدة اليوم كالطباعة الثلاثية، والذكاء الاصطناعي، والروبوتات وفرض أشكال مختلفة تمامًا من العولمة، وجعل الحديث عن ثورة صناعية رابعة أمرًا شديد الجاذبية.[7]

ولأننا اعتدنا التموضع خارج دائرة الفعل، قد تصبح كورونا وما تحدثه من تحولات مفاجئة غولًا يطيح بكثير من فئات المجتمع، لنجد أنفسنا أمام قضايا من شكل الفقر الرقمي، والأمية الرقمية، والفجوة الرقمية، واستعصاء إمكانية التحول الرقمي لكثير من الأعمال البسيطة، فيقع أصحابها ضحية الفقر والتهميش، أو أن تصبح الرقمنة خيارات مفروضة على جميع الفئات الاجتماعية لتسهيل مراقبتها وتوجيهها.

---

(7) Ed Conway, Coronavirus can trigger a new industrial revolution, The Times, Thursday March 05 2020, 5.00pm GMT. https://www.thetimes.co.uk/edition/comment/coronavirus-has-a-silver-lining-cz8wpc6xj

## 3- المجتمع الكوني: بين المحلية والعالمية

في حالة فريدة من الاجتماع الإنساني وتنازعه بين المحلي والعالمي، نجد ألّا شيء أكثر محلية الآن من مجتمعات جمعت شتات أبنائنا واحتضنتهم داخل حدودها وعادت تنبش في وسائلها المحلية القديمة للعيش والبقاء، ولا شيء أكثر عالمية الآن من اجتماع شعوب الأرض على همّ واحد ومصير مشترك، فغدت تبحث في أكثر الوسائل حداثة للتواصل والعمل والاستمرار، وظهرت مشاهد تجمع تناقضات العيش البسيط إلى تقنيات العصر الحديث!

تقع موضوعات مثل: **الهويات والانتماءات والثقافيات الفرعية والنسبية الثقافية والعولمة والمحلية** وغيرها؛ في صلب اهتمام علم الاجتماع الثقافي، الذي سيكون إطارًا لدراسة دوائر الانتماء التي كلما اتسعت أنبأت عن المشتركات الإنسانية، وكلما ضاقت برزت التمايزات الثقافية لبني البشر، ربما تعي شعوب الأرض أن ما خلقته تناحرات دوائر انتمائهم كانت بفعل خطأ في الصور الانطباعية التي يرسخها الإعلام لتنمو على أكتافها ثروات تجارة الدم والسلاح، وليست هذه الأفكار كورونية المنشأ، وقد طرحها الفارابي قبلًا في «آراء أهل المدنية الفاضلة» وتحدث عن حالة كونية من الاكتفاء تعيشها المعمورة في أوسع ما يكون من دائرة لانتماء البشر على هذا الكوكب!

وفي **علم الاجتماع السياسي**، يثير الانتباه غياب قيادة عالمية توجه الأزمة الحالية، في وقت تداول ما يشير إلى صراعات على حلبة الموت والمرض، خفية وظاهرة، بين أطراف متنافسة حول من وكيف سيحكم العالم في القرن 21، من يحسمها لا بد أن يكون ذا قدرة على امتلاك الجيل الخامس من الإنترنت،

والتحكم بالحواسيب الكوانتية، والذكاء الاصطناعي، والأدوية البيولوجية، والسيطرة على الفضاء، والتواصل عبر الأقمار الصناعية، والسيارات ذاتية القيادة وغير ذلك. في مشهد قد يهدم أسس الصراعات الدولية السابقة، وتختفي معه معالم تصنيف الدول القديم، وتسود قيم سياسية اجتماعية جديدة برهن شكل النظام القادم!

وفي أجواء كورونا تتبادر إلى عالم الاجتماع السياسي تساؤلات حول وجود علاقة بين أشكال أنظمة الحكم وطرق التصدي للجوائح، وآليات الإفصاح عن المعلومات ومشاركتها مع المنظمات الدولية والإعلام، وقد بدا لنا أن أنظمة استبدادية كانت أكثر قدرة على ضبط انتشار الفيروس بفرضها لقواعد وقوانين ضبط اجتماعي شديدة الصرامة، وأن المجتمعات الديمقراطية المفتوحة رغم كونها أكثر تقدمًا وحرية وثقة وإفصاحًا عن المعلومات، إلا أنها كانت مسرحًا للوباء والتخبط والفشل في أكثر من جانب، وكما بدا أن المجتمعات تتفاوت في توجهها نحو الإجراءات الرسمية التي اتخذتها الحكومات للتعامل مع فيروس كورونا، وأنه ربما تمايزت الحكومات في ردة فعلها تجاه الجائحة شدة وتراخيًا وفقًا لتقديرات يجدر كشفها، فهل استغلت الحكومات مواقفها لتحقيق مآرب أخرى؟ وهل تعلم الحكومات عن أمور خفية لا تدري عنها الشعوب؟ هل تقصّدت الحكومات إثارة الرعب والخوف في الشعوب؟ هل الإجراءات الرسمية زادت من مناسيب الثقة بالحكومات؟ هل سيقضي كورونا على أحلام الشعوب وتطلّعاتهم التي كانت تشغلهم قبل حدوثها؟ وهل يخلق ضعف المعلومات بيئة خصبة للإشاعات والأخبار الكاذبة ومن ثم الذعر والخوف والقلق؟ وماذا حدث في المجتمعات التي كانت تعاني الحروب

والمجاعات والصراعات المتنوعة في أوقات الجوائح وانتشار الأوبئة والأمراض؟ كلها أسئلة برسم الإجابة العلمية المنتظرة في حقل علوم المجتمع والإنسان.

أما جغرافية الانتشار وسبب خلو دول مثل كوريا الشمالية، طاجكستان، تركمنستان، اليمن، جزر مارشال، ناورو، ميكرونيزيا، بالاو، ساموا، توفالو، تونغا، جزر سليمان، جنوب السودان، سيراليون، جزر القمر، بوروندي، ملاوي، بوتسوانا، ليسوتو، ساوتومي وبرينسيبي من كورونا؛ [8] فإنها تثير تساؤلات حول ارتباط ذلك بخروج تلك الدول من دائرة الفعل والتنقل والعولمة والحداثة، فهل كان لعزلتها الجغرافية والثقافية دور في ذلك؟ وقد نكشف حقيقة فرضية أن فيروس كورونا يستهدف المجتمعات الغنية والمتقدمة.

وأقترح بدء النظر بموضوع جديد بمسمى **علم الاجتماع الكوني**، يتناول الظاهرة الاجتماعية بأبعادها الإنسانية الأوسع، وأرى ذلك ممكنًا في وقت أصبحت وسائل الإعلام والتواصل الرقمية الحديثة تنقل لنا ملايين الصور وتوثق لنا آلاف الأحداث حول العالم، فضلًا عن وجود منهجيات رقمية جديدة قادرة على التعامل مع البيانات الضخمة التي تتدفق حول العالم من خلال الشبكات الاجتماعية، وسيساعد ذلك على إغناء الدراسات الاجتماعية المقارنة، وبناء التصورات النظرية المستندة على أوسع مدى للرؤية والتأمل، وقد يفسح ذلك المجال لبناء تصورات نظرية أوسع وأشمل عند توسيع دائرة الاستقراء والتأمل.

---

(8) Owen Amos, Coronavirus: Where will be the last place to catch Covid-19? BBC News, 3 April 2020, https://www.bbc.com/news/world-52120439

## 4 - التغير الاجتماعي: تبدّل التصورات وأنماط العيش

في حالة من تراجع قيم الحرية لصالح قيم أخرى، فإنه لا شيء متحرر الآن أكثر من التصورات والأفكار والطرق التي كنا نرى بها العالم من قبل، ولا يخفى أننا نعيش تغيّرًا متسارعًا ومفاجئًا وغير مخطط له فُرِضَ تحت ضغوط الحماية والخوف. فهل انقلب العالم أم انقلبت أفكارنا عنه أم انقلب على ذاته؟ هل نحن في حلم؟ أم أننا عدنا إلى وعينا؟

شاهد الناس مجتمعات الرفاهية، الحديثة، المتقدمة، الصناعية بحالة انكشاف غير مسبوقة لسوءاتها؛ نظام صحي منهار، وسياسات متلكّئة في تقديم خدمات الرعاية واتخاذ الإجراءات الصارمة لحماية السكان، وغربيون يرفضون العودة إلى بلادهم، ودول ضعيفة تؤوي أوروبيين، وحرق علم الاتحاد الأوروبي في إيطاليا، والتدافع على المناديل الورقية في المراكز التجارية، ورئيس أمريكا يقرأ على نفسه التعويذات، ومدن أوروبية ولأول مرة ترفع صوت الأذان، والكثير مما لا يمكن حصره، كل ذلك في أنظمة ديمقراطية/ علمانية كانت تشكل حلمًا جميلًا لكثير من أبنائنا.

وتعرضت كثير من مسلّماتنا وطرق عيشنا التي تشكلت خلال فترة طويلة من التناحر المفروض بقانون «أن المغلوب مولع أبدًا بتقليد الغالب»، وحالة «عصبية التراث» إلى هزة نحَت بكثيرين لرصد المفارقات بين ما تصورناه وما شهدناه ووضعها في إطار الطرفة المتداولة، وبآخرين لإقناع أنفسهم أنهم ربما يعيشون حلمًا ما.

يحلو للمتأملين في حقول الفكر ودوائر المعارف وقد منحتهم كورونا الوقت الكافي لذلك التفكير بمصير مفاهيم كانت طاغية قبيل أيام كالرأسمالية، والخصخصة، وسوق العمل، والعولمة، والحداثة، والتجارة العالمية، والشركات العابرة للقارات، والعلمانية، والنيوليبرالية، وغيرها وهي تتعرض لضربات متتالية، تحدث معها تغيّرات لا يستهان بها في الرؤى والتصورات، وتفرض تحديات عظيمة على علم الاجتماع نأمل معها إعادة النظر بطرق الاشتغال به طوال العقود السابقة في عالمنا العربي!

إذا حدث ذلك ستتبدل أوراق «**غابة الرموز**» عند فكتور تيرنر وتظهر معاني جديدة لكل الأطر التصورية التي فُرضت بالقوة الصلبة أو الناعمة، كما سيتعيّن النظر في «فهم الآخرين لنا»، في فهم ذواتنا التي ربما خبرت نفسها لأول مرة بعيدًا عن الصور النمطية السائدة، وقد تجرأت وسائل إعلام غربية على نقل صور الأبطال من بني جلدتنا وهم يقاتلون الفيروس ويضحون بأنفسهم لأجل هذه الغاية النبيلة.

وقد تغدو **نظريات التحضر والتصنيع** كلامًا استعلائيًا استعماريًا فارغًا ليس له صلة بالواقع، أما نظرية دوركايم في **تصنيف المجتمعات** البعيدة أساسًا عن واقع عربي متأرجح بين التقليدي والمتطور، ربما تصبح مثارًا للسخرية وهي تنظر للزيادة السكانية كعامل أساسي في تحول المجتمعات من البسيطة إلى المعقدة، في وقت تستهدف الدول تقليل عدد سكانها للتخلص من أعباء رعايتهم، لاسيما كبار السن، فضلًا عن مشاهد العودة لأنشطة حياتية مرتبطة بالمجتمعات التقليدية البسيطة ونحن في عصر الرقمنة، كالعودة إلى الزراعة، والاكتفاء الذاتي، وصناعة الخبز البيتي ومؤونة البيت، وغيرها، وأظن أن

كورونا سيشكل نقطة بارزة في السيَر الذاتية لكثير من المفاهيم والموضوعات والأحداث عند النظر إليها من زاوية الخيال السوسيولوجي كآلية للفهم والنظر العلم-اجتماعي.

سيكون مستغرَبًا استمرار حضور **نظرية الأطوار الفكرية الثلاثة لأوجست كونت**، كأطر تفسيرية لواقع نشهد فيه ونراقب عودة للفكر الديني في أبرز أروقة مؤسسات الدول الغربية السياسية والاجتماعية، ولا أقل من الجزم بعدم صلاحية نظريته لمجتمعات أخرى لا يشكل الدين فيها سلطة تحجُر على العقل والعلم، وحين نتابع ما يقوله الفيلسوف الفرنسي الفرنسي ميشال أونفراي[9]، يتبادر إلى الذهن سؤال حول انتعاش أفكار **ابن خلدون ونظريته الدائرية في سقوط ونهوض الحضارات**، فهل حقًا ستنكفئ أوروبا إلى عهد «البداوة» وتدخل نادي أعضاء العالم الثالث؟ وهل نستفيد آنئذ من أفكار بيتر بيرغر وتوماس لوكمان في **البناء الاجتماعي للواقع** وآليات بناء مجتمع جديد وفقًا لتصورات جديدة؟ وإذا كان ممكنًا تغيير المجتمعات الإنسانية لأنماط حياتها وتصوراتها بشكل مفاجئ وشامل وخلال فترة زمنية قصيرة!

وإذ حدثت تبدلات في مختلف أنماط العيش والأدوار الوظيفية داخل الأنساق الاجتماعية التقليدية، يعود من الضروري تدخل العدة النظرية والمنهجية للباحثين في **علم الاجتماع الاقتصادي، وعلم الاجتماع التربوي** لدراسة وتقييم الأشكال الجديدة من العمل والتعليم والتسوق، وما نشأ

(9) آدم جابر، فيلسوف فرنسي: أوروبا أضحت العالم الثالث الجديد وأزمة "كورونا" تأتي ضمن انهيار الحضارة اليهودية-المسيحية، القدس العربي، 22 - مارس – 2020.

عنها من تبدل في العلاقات والبنى التي تحكم سيرها، وما ظهر من مشاكل اجتماعية واستراتيجيات التكيّف وغيرها مما يمكن رصده في هذه المجالات، وظني أن أشكال التعليم والعمل ستزدهر بشكل كبير بعد كورونا، وتجعل منها الحكومات خيارها المفضل، وقد تجد فيها المجتمعات فائدة كبيرة كذلك من جهة تخفيف مصاريف النقل والرسوم الدراسية، رغم خطورة السير بهذا الاتجاه دون دراسات حقيقية تراعى فيها مصالح المعلمين والعاملين الذين سيتعرضون لخسائر كبيرة في وظائفهم التي يمكن القيام بها بعدد أقل، أو باستبدالهم بروبوتات مبرمجة للقيام بأعمال بشرية في كثير من القطاعات.

ما يلفت الانتباه في حالة الإجماع على أن العالم بعد كورونا لن يكون كما قبله، هو غياب من يتحدث عن التخطيط والمشاركة في صياغة شكل العالم الجديد، وكأننا في هذه البقعة من العالم سنبقى كما كنا قبل كورونا خارج إطار العالم، وخارج إطار الفعل المستقل سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا، وأرجو ألّا يكون ذلك صحيحًا.

## 5 - ما بعد المابعديات!

تهمنا كمتخصصين في علم الاجتماع النماذج الفكرية التي تطورت عبر تاريخ الفكر الغربي خلال العقدين الماضيين، لما لها من علاقة مع النظريات التي شكلتها ومناهج البحث التي تطوّرت عنها، ويلفت نظر المتأمل تراكم النماذج المابعدية في وصف مراحل التطور الفكري الغربي، وانتشاره على امتداد العالم، فما تفتأ تعلن كل مرحلة عن ذاتها، حتى تلحقها أخرى ما بعدية، فظهرت ما بعد الوضعية تعلن خطأ الوضعية، وما بعد الحداثة

تعلـن فشـل الحداثـة، ومـا بعـد الحقيقـة تعلـن ضيـاع الحقيقـة، ومـا بعـد الأخلاق تتحسـس فقـدان الأخـلاق، ومـا بعـد الإنسـانية خشـية عـلى الإنسـانية، ومـا بعـد الرقميـة تحسـبًا لمـا هـو قـادم، ومـا بعـد العلمانيـة إعـادة للنظـر في عنـصر هـام بالمجتمعـات لا يمكـن إغفالـه.

كل هـذه **المابعديـات** في الفكـر الإنسـاني تجعـل الإنسـان المتابـع والمتأمـل يطـرح عـلى نفسـه سـؤالًا بسـيطًا ومعقـدًا في الآن ذاتـه: مـاذا بعـد؟ هـل سـيكون لجائحـة كورونـا دورٌ في حسـم شـكل المرحلـة الفكريـة القادمـة، ونحـن نشـهد تأثيرهـا في العديـد مـن الـرؤى والتصـورات السـائدة؟ صحيـح أن النمـوذج المابعـد حـداثي هـو الأكـثر ازدهـارًا في هـذه المرحلـة، ولكـن هـل سـيطور ذاتـه، ويعلـن مـوت الإنسـان وعـودة الإلـه إلى مركـز الوجـود؟ هـل سنشـهد انعطافـة غربيـة باتجـاه الديـن، يسـتطيع رصـد ملامحهـا مـن يتابـع المشـهد في الفكـر الغـربي عـن كثـب؟ متـى وكيـف سيحسـم أهـم جـدل بـين العلـم والديـن؟ هـل يمكـن للمجتمعـات أن تحقـق سـعادتها المنشـودة دون ذلـك الحسـم؟

قـد تبـدو تخصصـات فرعيـة مثـل **علـم الاجتـماع الدينـي** أو **علـم اجتـماع الإسـلام** أو **علـم اجتـماع المعرفـة** معينـة للنظـر في تسـاؤلات ملحّـة حـول مـآل المقـولات المابعديـة، ومـآل مقـولات «**مـا بعـد العلمانيـة**» وهـي تقـرر أن الديـن عنـصر جوهـري في المجتمعـات، وتبحـث في الـدور الـذي يمكـن للديـن أن يقـوم بـه في تلـك المرحلـة؟ وهـل تمتلـك الرمـوز الدينيـة بأشـخاصها ومؤسسـاتها العـدة المعرفيـة المطلوبـة لصياغـة ذلـك؟

## 6 - الأخلاق أولًا وأخيرًا: أولويات القيم

كانت الحرية قيمة القيم، لا تعلو عليها أخرى في المجتمعات الديمقراطية وغير الديمقراطية على حد سواء، الأولى ممارسةً، والثانية تطلعًا، وتحت وقع الجائحة أعيد النظر بـ «أولويات القيم» وتصدرت قيم المسؤولية وحفظ النفس والتضامن المشهد الاجتماعي عبر الإعلام ومداخلات الناس على حساباتهم الرقمية، وتصريحات المسؤولين، وأصبح التباعد الاجتماعي، خلقًا اجتماعيًا وسلوكًا لتحقيق قيمة المسؤولية الفردية تجاه المجتمع والآخرين، وبات الالتزام بالحجر الصحي تدبيرًا مؤشرًا على الالتزام والحرص، لا بل اعتُبِرَ مسؤولية تجاه الوطن.

كما غدت مسؤولية رأس المال، ومسؤولية الدولة، ومسؤوليات المجتمع، مهمة في حفظ النفس والمجتمع والوجود الإنساني، تليها قيمة التضامن الاجتماعي بعد تزاحم المصائب القديمة إلى المتعلقة بأزمة كورونا على الأفراد والأسر، ويبدو كذلك أن قيم الفضيلة ستزدهر تحت وطأة العزل والحماية وتجنب انتقال العدوى، وأصبحت الفواحش والعلاقات غير الشرعية في زمن الكورونا محل ريبة وخوف، بعد أن كانت نسبة الولادات غير الشرعية (خارج إطار الزواج) في كثير من دول أوروبا تتجاوز النصف قبل كورونا.[10]

ويلحظ المراقب تحرر قيمة البطولة من صورة الجندي المحارب للأعداء، بعد أن تعلقت أماني الشعوب والحكومات بأبطال آخرين مرابطين في غرف

(10) Martin Armstrong, Where babies are born outside of marriage statista, Jun 11, 2019. https://www.statista.com/chart/13668/where-babies-are-born-outside-of-marriage/

المرضى والمختبرات والرعاية الصحية، والخدمات الموازية، وبرزت قيمة العلم والمعرفة، والتفاني والإخلاص لكل الماكثين في مواقعهم الضرورية لاستدامة الحياة وتوفير متطلباتها الرئيسية.

والأخلاق والقيم والأعراف والعادات والتقاليد موضوعات أساسية في علم الاجتماع كونها تشكل أحد أهم مكونات الثقافة، ومن خلالها يمكن لعلم الاجتماع أن يتعامل مع تساؤلات تستكشف طبيعة القيم التي تسود وقت الأزمات الكبيرة، وكيف تعيد المجتمعات ترتيب أولوياتها المعيارية، وما المصادر التي تستند إليها في إعادة الترتيب، هل كانت بنوازع ذاتية أم بدوافع خارجية؟ وكيف يمكن تحول عدوى الفيروس إلى عدوى أخلاقية تنشر قيم الخير والتضامن والمسؤولية تجاه بعضنا بعضًا؟ كما يمكن النظر في القيم القابعة خلف وظائف الأنساق المختلفة والقيم القابعة خلف مصالح طبقية رأسمالية وقت الجوائح، ويبدو أن ما بعد أزمة كورونا سيشهد فتح ملفات حقوقية وأخلاقية فيما مورس من قبَل كافة الدول من سياسات تتعلق بملفات حقوق الإنسان والتحيز والتمييز تجاه كبار السن والفئات الأقل حظًا عمومًا.

## 7 - مجتمع المخاطر: رؤية كورونية

اهتم علم الاجتماع بما يحيق بالمجتمع من مخاطر منذ نهايات القرن العشرين، وصدر لعالم الاجتماع الألماني أولريش بيك Ulrich Beck كتاب «مجتمع المخاطر» في 1986، عالج فيه آثار الحداثة على الإنسان والبيئة، ألحقه بآخر حول «مجتمع المخاطر العالمي» ليرصد فيه آثار العولمة في نشر مخاطر الحداثة في البيئة والاقتصاد والأمن والإنسان وأسماها المخاطر الطيارة،

العابـرة للحـدود والتـي يمكـن أن تحيـق بالعـالم أجمـع، في صـورة تسـتدعي إلى الذهـن سلسـلة السـوائل والحداثـة السـائلة لعـالم الاجتـماع البولنـدي زيجمونـت باومـان، و«عـالم منفلـت» للأمريـكي أنتـوني جيدنز، وتشـكّل حول مجتمـع المخاطرة جـدل كبـير سـاهم فيـه عـدد مـن علـماء الاجتـماع[11] جعـل معـه ممكنًـا ولادة تخصـص فرعـي جديـد **علـم اجتـماع المخاطـر** أو **علـم اجتـماع الكـوارث**، واعتـبرت المسـاهمات الناقـدة للحداثـة الغربيـة إطـارًا نظريًـا غنيًـا لهـذه التخصصـات ومـا يطـرح فيهـا مـن موضوعـات.

يحـق للمـرء الاندهـاش مـن ازدهـار تلـك المجـالات العلميـة في مجتمعـات لطالمـا اعتُـبرَت الأفضـل، وتجاهلهـا في مجتمعـات تحيـق بهـا المخاطـر مـن كل جانـب؛ الحـروب والفقـر والجهـل والأميـة والاسـتبداد، بمـا يؤكـد أحـد أبعـاد الأزمـة العميقـة التـي تعيشـها العلـوم الاجتماعيـة العربيـة، ولعـل كورونـا وهـي تعيـد ترتيـب أولوياتنـا في الحيـاة، يكـون لهـا الأثـر ذاتـه في الخطـط الدراسـية في الجامعـات وخطـط الأبحـاث في مراكـز الدراسـات العربيـة، ونبـدأ بدراسـة التجارب البشريـة والتاريخيـة، وسياسـات مواجهتهـا للمخاطـر، والتعامـل معهـا، ويكـون لنـا إسـهام حقيقـي في صياغـة التوجهـات النظريـة العلميـة في هـذا المجـال، ذلـك أننـا في هـذه البقعـة مـن العـالم نملـك موقعًـا يتيـح لتشـكيل رؤيـة مختلفـة عـن تلـك التـي يراهـا آخـرون في مواقـع أخـرى تجـاه المخاطـر البيئيـة والأمـن والسـلم

(11) أورد أولـيرش بيـك، عـدد مـن الأعـمال حـول مجتمـع المخاطـرة العالميـة، يمكـن مطالعتهـا في نسـخة مـن كتابـه المترجـم إلى العربيـة.
أولريـش بيـك، مجتمـع المخاطـر العالمـي: بحثًـا عـن الأمـان المفقـود، القاهـرة- المركـز القومـي للترجمـة، الطبعـة الأولى 2013، ص7

العالمي، والعولمة الثقافية، والتمييز والعنصرية، والاقتصاد الرأسمالي، وآخرها وليس آخرًا المخاطر البيولوجية والتقنية.

ونحن إذ نسعى لفهم واقعنا الاجتماعي، لا يجوز لنا أن نقتصر في ذلك على الرؤى والنظريات الغربية، ولعل كورونا يجعلنا نعيد النظر فيما لدينا من عدة مفاهيمية ونظرية وأفكار وازنة قدمها كُثر، فننهض بها ونبني عليها ونطورها بالاستفادة من المنجز الحضاري الغربي لتساهم في بناء علوم اجتماعية حقة متعالية على أي مركزية تحاول بسط سيطرتها على الفكر الإنساني واحتكاره.

وفي إطار التفكير بالمناهج العلمية الممكن استخدامها في هذه الظروف، وبعد التأكيد على أهمية وضرورة إتقان **المناهج الرقمية** في العلوم الاجتماعية واستخدامها في أبحاثها العلمية؛ فإنني أنبه إلى أن المجتمعات البشرية تعيش **حالة مختبرية** مدهشة، فلم يكن يخطر في ذهن أوسع علماء الاجتماع خيالًا أن يحدث ما يحدث الآن للأفراد والأسر والمجتمعات والمؤسسات والدول وحكوماتها والعالم أجمع، وكأنها دخلت في أوسع مختبر لنجرّب كيف تتصرف المجتمعات عندما تغلق المجالات العامة، وكيف تعمل تحت ضغط الصدمة والفجاءة، وكيف تتكيف سريعًا مع الظروف الجديدة، وعلى الباحثين استغلال هذه التجربة بسعيهم إلى جمع البيانات وتوثيق الأحداث والحالات وكل ما يمكن رصده في الموضوعات والمجالات التي أشرنا إليها في هذه المقالة، ويمكن للباحثين ومؤسسات البحث العلمي والجامعات العربية تشكيل بنوك للبيانات القابلة للبحث والدرس في حاضر الأيام ومستقبلها في مختلف التخصصات العلمية.

حاولت في هذه الصفحات القليلة جمع شتات بعض التأملات والأفكار التي ربما تراود كثيرًا من المختصين في علم الاجتماع، وهم يرقبون حدثًا استثنائيًا، فيه من اللاقومية ما يجعلنا معنيين، وأمام فرصة للمشاركة في التغيير ولو على نطاقات محدودة، ومن اللايقين ما يجعلنا متحوطين من الجزم في أي قضية، فجُعل طرحها على شكل تساؤلات، وقد عرضت بعض ما يمكن تقديمه ضمن اختصاصات علم الاجتماع وعدته النظرية والمنهجية، وما يلزمنا في العالم العربي من مواكبة للمنهجيات الحديثة، وتطوير موضوعات جديدة، والمساهمة في صياغة الشكل القادم لحياتنا.

# أسئلة بحثية تطرحها جائحة كورونا على علماء الاجتماع

أ. د. مصطفى عمر التير

# أسئلة بحثية تطرحها جائحة كورونا على علماء الاجتماع

أ. د. مصطفى عمر التير

يتعرض العالم بين الحين والآخر إلى انتشار جائحة صحية، وإذا حصرنا اهتمامنا خلال الثلاثين أو الأربعين سنة الأخيرة، سنذكر إبولا، وسارس، وإنفلونزا الخنازير، ومتلازمة فقد المناعة المكتسبة (الإيدز)، سنجد أن البداية تكون في بلد واحد ثم تتوسع في بلدان الجوار.

يمكن أن ينحصر تأثير الجائحة في منطقة جغرافية بعينها في داخل إحدى القارات، ولا يتجاوز حدودها، كما في حالة جائحة إيبولا في أفريقيا، والمتلازمة التنفسية الحادّة الوخيمة (سارس) في جنوب شرق آسيا، ولكن، حدث في أكثر من مرة خلال حقب التاريخ، أن توسع مجال انتشار الجائحة، فظهرت حالات الإصابة بالمرض في عدد كبير من البلدان وفي القارات جميعها.

لم تتجاوز عدد الوفيات بسبب الجائحة بضعة آلاف في حالتَيْ إبولا وسارس، لكنها تجاوزت حاجز 200 ألف نسمة في حالة إنفلونزا الخنازير، أما الإيدز الذي ظهر أول مرة في سبعينيات القرن العشرين، ولا يزال ينتشر في مختلف بقاع العالم؛ تجاوز عدد الوفيات بسببه 39 مليونَ نسمة، وتشير المؤشرات الميدانية، أن الآثار المدمرة، التي ستنسب إلى جائحة كورونا، ستكون أقوى من الدمار الذي تسببت فيه أي جائحة من الجوائح التي تعرض لها العالم في السابق، وقد لا يصل عدد الذين سيموتون إلى عدد الوفيات التي

تسبب فيها الإيدز، لكن تداعيات الجائحة الحالية في العلاقات الاجتماعية النفسية، وفي الاقتصاد، وفي السياسة، ستكون خطيرة جدًا.

بعض المظاهر والأعراض المصاحبة لانتشار هذا المرض، سبق للعاملين في القطاع الصحي تسجيلها في مناسبات سابقة، وبعضها الآخر لم تُشاهَد من قبل، وكما حدث في حالات مماثلة، ظهر المرض في منطقة بعينها، في داخل بلد معين، ثم خرج منها ليغزو العالم بأسره.

من بين أهم خصائص هذا الفيروس طول مدة حضانته، التي تبلغ الأسبوعين، وسهولة انتقاله بين الأفراد، إذ لا تظهر على حامل الفيروس أعراض واضحة خلال فترة الحضانة، وتنتقل العدوى إلى الكثيرين من الذين خالطهم، لذلك اتفق الأطباء على أن التباعد الجسدي، هو أسلم طريق لتجنب العدوى.

يبدو هذا على المستوى النظري أمرًا بسيطًا، لكنه ليس كذلك عند التطبيق، فالعادات الاجتماعية في غالبية المجتمعات، تحضُّ على عكس هذا التصرف عند الدخول في أي علاقة تفاعل اجتماعي، حتى ولو بين غرباء، وتحدد الثقافة المحلية المسافة بين شخصين أثناء عمليات التفاعل الاجتماعي، وذلك على ضوء طبيعة العلاقة الاجتماعية بين الشخصين، وطبيعة عملية التفاعل ذاتها، فالمسافة قصيرة جدًا، أو حتى معدومة، في داخل الأسرة الواحدة، أو بين الأصدقاء، خصوصًا وأن أسلوب التحية في بعض المجتمعات لا يقتصر على المصافحة باليد، بل يمتد إلى المعانقة والتقبيل، والتباعد الذي يوصي به الأطباء الآن، أن لا تقل المسافة بين الشخصين عن متر ونصف، وإلغاء المصافحة باليدين، ولضمان هذه التعليمات؛ اضطرت السلطات في مختلف البلدان، إلى فرض قاعدة الإقامة الجبرية في البيت، التي امتدت إلى أسابيع بدلًا من أيام،

وقبل انتهاء شهر مارس 2020، كان حوالي نصف سكان العالم تحت الحظر، فأصبحت الشوارع خالية من المارة ومن السيارات، وباتت بعض أشهر مدن العالم التي كانت تعج بالحركة ليل نهار، كأنها مدن أشباح، وهكذا اضطرت نسبة من أفراد المجتمع إلى تغيير نمط نشاطها اليومي، فبدلًا من مغادرة المنزل خلال ساعات النهار الأولى، وقضاء أغلب ساعات النهار في مكان عمل بعيد من المنزل، تغيّر الحال إلى البقاء داخل المنزل، وبالنسبة للكثيرين، لم تكن هذه الحالة مصحوبة بأجواء الفرح والطرب، بل كانت مصحوبة بمشاعر الخوف والهلع المصاحب لحالة عدم التيقن، ويمكن الإشارة إلى هذه الحالة بـ «جائحة الخوف».

تغيرت الأنشطة اليومية للفرد؛ فمُنع الطفل الصغير من اللعب خارج المنزل والذهاب إلى المدرسة، وتوقف العامل عن الذهاب إلى مقر عمله، وكذلك الموظف في القطاعين العام والخاص، وطُلب من الناس العمل في البيت، وإذا كانت بعض الأعمال من الممكن مزاولتها من البيت وهي التي تعتمد أساسًا على توظيف تقنيات الاتصالات الحديثة؛ إلا أن آلاف مجالات العمل لا يمكن مزاولتها عن طريق الإقامة في البيت.

على نطاقٍ أوسع، أغلقت البلدان حدودها مع جيرانها، إذ اعتبرت السلطة في كل بلد أن جميع البلدان الأخرى موبوءة، لذلك قررت ألا تستقبل منها زوارًا، في حين سمحت بعض البلدان عودة مواطنيها العالقين في الخارج، بشرط خضوعهم لحجر صحي لمدة أسبوعين، وعندما اضطرت تلك البلدان إلى تشديد الإجراءات، أقفلت حدودها بالكامل، واضطر مواطنوها إلى البقاء في أماكنهم، بغض النظر عن ظروفهم الاجتماعية والمادية.

أربكت جائحة كورونا بانتشارها السريع برامج الدول للتعامل معها، واتضح أن القطاع الصحي العام في أغلب الدول التي توصف بالعظمى أو القوية أو المتقدمة، لم تكن مستعدة للتعامل مع الجائحة بكفاءة، ما أدى إلى ردود أفعال، نتج عنها توتر في العلاقات الدولية، وقد وُجِّهَت انتقادات إلى الصين واتُّهمَت بالتكتم على البيانات، والتأخر في إخطار بقية بلدان العالم بطبيعة الفيروس الجديد، وفي المقابل اتُّهمت الولايات المتحدة أن الفيروس خُلّق في معاملها البيولوجية، وهناك دول أعلنت عدم استلامها معدات طبية اشترتها من الصين، لأن دولًا أخرى اعترضت طريقها واستولت عليها، وبعض دول أعضاء الاتحاد الأوربي التي تضررت بدرجة كبيرة، انتقدت بقية الأعضاء بسبب تخلفهم عن تقديم الدعم.

كان المتوقع أن تتعاون الدول الكبرى، التي تمثل الأعمدة الرئيسة للنظام الدولي، وتضع خطة مشتركة لمواجهة التهديد، الذي يتعرض له العالم، كي تنجح في محاصرة الفيروس في أراضيها، ثم تقديم الدعم لتلك البلدان التي لن تنجح في محاصرة الفيروس، ما لم تحصل على دعم من الدول المتقدمة، ولكن بدلاً من هذا؛ ارتفع مستوى الانتقادات ومستوى الاتهامات المتبادلة فيما بين الدول، واتجه اهتمام كل دولة نحو الداخل، ضاربةً عرض الحائط بشعار «العالم قرية».

الأدهى والأمر، أن الدول الكبرى الغربية فشلت في اتخاذ قرارات صارمة لتحول دون انتشار الوباء انتشارًا واسعًا، حيث وجدت أن إمكاناتها الصحية دون مستوى التعامل بفاعلية مع الجائحة، ويستدعي هذا الوضع طرح مجموعة من الأسئلة، يأتي في مقدمتها، لماذا انتصر فيروس كورونا على

الـدول الكـبرى؟ وكيـف بـدت ضعيفـة وليسـت بالقـوة المتخيلـة؟ وهـل يمكـن توجيـه اللـوم إلى طبيعـة النظـام الـدولي؟ الـذي تشـكل خـلال الحقبـة التـي بـدأت بتفـكك الاتحـاد السـوفيتي، وانتهـاء الحـرب البـاردة، وانفـراد الولايـات المتحـدة الأمريكيـة بالزعامـة، التـي وظفتهـا في فـرض فلسـفتها وقواعدهـا وسياسـتها، بعـد تبنـي مبـدأ (New World Order)، بـدلًا مـن (World System). حقبـة شـاعت خلالهـا أفـكار تسـوق إلى مبـادئ نهايـة التاريـخ، وحتمية التحـول نحـو الديمقراطية الليبراليـة، وسـيطرة قواعـد السـوق، وتحـول العـالم إلى قريـة كونيـة.

نجـح نسـق العولمـة، الـذي سـاد خـلال السـنوات الأخـيرة، في التشـبيك بـين البلـدان في عـدة مجـالات أهمهـا الاقتصـاد والتكنولوجيـا، لكـن العولمـة لم تسـاعد في إزالـة حواجـز أخـرى مهمـة، لذلـك لم تختـفِ الخلافـات التـي تغذيهـا عوامـل دينيـة أو ثقافيـة، مـا أدى إلى تزايـد معدل الصدامات العسـكرية، وتعدد المناسـبات التـي يظهـر فيهـا فشـل العولمـة واضحًـا حتـى بـين أعضـاء النـادي الواحـد، مثـل الخـلاف الـذي حـدث داخـل الاتحـاد الأوربي. وفي ظـل العولمـة، ارتفـع معـدل اتصـال أطـراف العـالم بعضهـا ببعـض، وعملـت ثـورة تقنيـة الاتصـالات عـلى هـدم الجـدران، التـي سـبق للـدول أن بنتهـا حـول حدودهـا للمحافظـة عـلى الخصوصية السياسـية والثقافيـة، فانسـابت المعلومـات والأخبـار والموضوعـات عـبر الحـدود، وتقلصـت درجـة تحكـم السـلطة المحليـة في مضمـون المعلومات التـي ترغب في أن يطلـع عليهـا مواطنوهـا، والقواعـد والعـادات التـي يجـب التطبـع بهـا والمحافظـة عليهـا، وبـدا المشـهد العالمـي، وكأن الدولـة القوميـة في طريقهـا إلى الـزوال.

ومـع أن بعـض الأحـكام التـي أشـير إليهـا سـابقًا لهـا مـؤشرات إمبيريقيـة، نقـول أن العولمـة لم تلـغِ جميـع أدوار الدولـة القوميـة في البلـدان التـي تلتـزم

أنظمتها السياسية بالديمقراطية الليبرالية، فلم تتنازل عن جميع أدوارها، وظلت مسؤولة عن حفظ الأمن، وتنظيم العلاقات بين مختلف مكونات المجتمع، والإشراف على توزيع الدخل القومي، لكن يمكن القول أن درجة إدارتها للشأن العام ضعفت بعض الشيء، ما أدى إلى ارتفاع نسبة مساهمة فاعلين آخرين، خصوصًا أولئك الذين يستمدون قوتهم من سلطة المال، بعد تكدس الثروة في أيدي عدد صغير من أفراد المجتمع ومؤسسات اقتصادية عملاقة عابرة للقارات، وانحسار دولة الرفاهية بنماذجها المختلفة.

تزامن هذا مع ظاهرة عالمية، حيث جُعِلَ التسليح على رأس قائمة الدولة القومية، وعليه تسابقت الدول المتقدمة تكنولوجيًا في مجال صناعة السلاح، وعلى الجانب المقابل تسابقت بقية الدول، بما فيها الصغيرة في شرائه وتكديسه، وتم هذا النشاط بالنسبة للجانبين على حساب تدعيم وتقوية البرامج والمؤسسات التي تعمل على الارتقاء بمستوى الحياة لجميع المواطنين دون تمييز، ووضْعِ قواعد تضمن توزيعًا عادلًا للدخل، لذلك ارتفعت معدلات البطالة، وتباعدت الهوة الاقتصادية بين الفئات الاجتماعية، وتكاثرت أعداد الفقراء، ليس في الدول الفقيرة فحسب، بل وُجِدَتْ هذه الظاهرة حتى في الدول الغنية في الموارد الطبيعية.

احتفظت الولايات المتحدة الأمريكية بمركز الصدارة في نادي الدول الغنية اقتصاديًا، وتنافست بقية أعضاء النادي إلى احتلال المراكز التالية، وقد ظهر فيروس كورونا في الصين البلد الذي يحتل الترتيب الثاني في هذا النادي، ولم تمضِ على بداية ظهوره أكثر من ثلاثة أشهر حتى بدا أن الانتشار

الواسع للجائحة تقع مسؤوليته على بلدان نادي الأغنياء؛ وبالتحديد الولايات المتحدة، وإيطاليا، وإسبانيا، وألمانيا، وفرنسا، وبريطانيا.

يتوقع المتابع، أن تكون الدول الغنية مرشحة أكثر من غيرها، كي تتعامل بمهارة وكفاءة مع الكوارث والمخاطر التي تجتاح العالم، وأنها الأقدر على حماية مواطنيها من النتائج السلبية التي تنتج عن الأخطار التي تحدث فجأة، لكن الأمر المحيّر، هو أن الصين التي يسكنها ما يقارب المليار ونصف نسمة، بدت مساهمتها في حجم المصابين بفيروس كورونا متدنية مقارنة بالأرقام التي سُجِّلَت في البلدان الأوربية المشار إليها سابقًا، فعندما وصل عدد المصابين بالفيروس مليون شخص يوم 2 أبريل 2020، ووصل عدد الوفيات 52 ألف نسمة، كانت مساهمة الصين حوالي 8 بالمئة من حجم المصابين، و6 بالمئة من حجم الوفيات، وعندئذ وصلت نسبة المصابين في الولايات المتحدة 27 بالمئة، وإيطاليا 12 بالمئة، وإسبانيا 11 بالمئة، وإذا أضيفت نسب المصابين في كل من ألمانيا وفرنسا وبريطانيا، تصل نسبة مساهمة هذه البلدان 68 بالمئة، و73 بالمئة في عدد الوفيات.

الأحداث التاريخية التي قادت إلى تغييرات دراماتيكية على مختلف المستويات والأشكال، مثل الأديان، والكوارث الطبيعية، والحروب، والثورات بأنواعها السياسية والعلمية والتكنولوجية؛ أخذت في بعض الأحيان شكل جائحة وبائية، وهو الشكل الذي يهمنا في هذه المداخلة، لذلك نفترض أن مراحل تطور جائحة كورونا، وأسلوب انتشارها، وحجم الأضرار البشرية والمادية التي تسببت فيها حتى الآن، سيكون له تداعيات على مستوى الفرد والمجتمع، وستطال المجالات الرئيسة لحياة البشر بمواصفاتها النفسية

والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، وستؤدي إلى ظهور ظواهر جديدة على جميع الأصعدة، وستفتح الباب أمام سيل من الأسئلة الجديدة، تُطرح على المسؤولين عن إدارة الشأن العام، وعلى الباحثين في مختلف مجالات المعرفة، لعلهم يجدون لها إجابات شافية.

يفترض أن تلجأ المجتمعات إلى أن تبني الإجابات على نتائج أبحاث علمية، وليس على تخمينات أو تكهنات أو الاستعانة بالغيبيات، ومع أننا نعيش في عصر تبوأت فيه المعرفة العلمية مكانة عالية، لا يزال المدعوون للمعرفة، والمتنطعون، والمشعوذون، يحتلون مراكز قيادية في دوائر القرارات الرسمية، خصوصًا في مجتمعات العالم الثالث، ونفترض أن المجتمعات التي تصنفها الأدبيات المتداولة « متقدمة»، سيحصل فيها الباحثون الذين يتقيدون بالقواعد الصارمة للمنهج العلمي على فرص جيدة في النشاط الموجه نحو الإجابة عن الأسئلة الجديدة، لذلك سنحاول في الجزء التالي اقتراح قائمة تتضمن بعض الأسئلة البحثية التي يمكن أن تطرح على المتخصصين في علم الاجتماع، وسنقسمها إلى قسمين: 1) أنماط التفاعل الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية. 2)العلاقات الدولية والنظام الدولي.

**أولًا: الفرض العام بالنسبة لأنماط التفاعل الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية يمكن صياغته كالتالي: ستحدث تغيرات جوهرية في أنساق القيم، وفي طبيعة العلاقات الاجتماعية في مجتمعات كثيرة من بينها العربية، وفيما يلي بعض الأسئلة المتعلقة بهذا الفرض:**

1 - مـا هـو الـدور الـذي لعبتـه وسـائل التواصـل الاجتماعـي في توعيـة المواطنـين بالخطـر المصاحـب للجائحـة؟ ومـا مـدى نجاحهـا في توصيـل المعرفـة العلميـة وإبعـاد التفسـيرات غـير العلميـة حـول الجائحـة في كل مجتمـع؟ وإلى أي مـدى كان لهـا دور في تعـاون مختلـف مؤسسـات المجتمـع الرسـمية وغير الرسـمية، لتنفيـذ السياسـات الرسـمية التـي اعتمدتهـا الدولـة في حربهـا ضـد الجائحـة في داخـل كل مجتمـع؟ ولمـاذا لم تحقـق نجاحًـا يذكـر عـلى مسـتوى التعـاون الـدولي؟

2 - هـل سـتقود قيمـة التباعـد الجسـدي- التـي تم التأكيـد عليهـا- إلى انتهاء بعـض العـادات وانتشـار عـادات جديـدة، وهـل سـيقود هـذا إلى تطـور عـادة (أكـثر تباعـد وأقـل علاقـات قـربى) ثـم مـا هـي الفئـات التـي سـتتأثر بدرجـة أكـبر، ومـا تأثـير كل هـذا عـلى العلاقـات الاجتماعيـة التقليديـة في مختلـف المجـالات، ابتـداء مـن مؤسسـة الأسرة، ثـم إلى باقـي المؤسسـات الاجتماعيـة الأساسـية؟ وهـل يمكـن أن تتطـور تداعيـات تنعكـس سـلبًا عـلى العلاقـات مـع الأجانـب والغربـاء؟

3 - هـل يمكـن للتكنولوجيـا المسـاعدة في تخفيـف الآثـار السـلبية للعـزل الاجتماعـي؟ وهـل مـن الممكـن أن تحـل وسـائل التواصـل التكنولوجـي محـل التفاعـل الاجتماعـي وجهًـا لوجـه بالنسـبة لبعـض الفئـات، وكذلـك بالنسـبة لبعض المجـالات كالعمـل مثـلًا؟ ومـا هـي التجديـدات التـي سـتطور بهـدف التعويـض عـن إلغـاء لغـة الجسـد؟

4 - كيـف يمكـن أن يتطـور الخـوف إلى جائحـة؟ ومـا هـي الخطـوات الضروريـة للتعـافي؟ وكيـف تختلـف فئـات المجتمـع العمريـة وكذلـك الاجتماعيـة في هـذا الشـأن؟ وهـل يمكـن أن تكـون لـه آثـار عـلى الصحـة النفسـية فيـزداد عـدد غـير السـويين نفسـيًا.

5 - إلى أي مدى تنطبق نظرية الوصم على المتعافين من المرض؟ وما هي مظاهر تطبيق النظرية في مجتمعات بعينها؟

**ثانيًا: الفرض العام بالنسبة للعلاقات الدولية والنظام الدولي يمكن صياغته كالتالي: ستتغير طبيعة العلاقات بين الدول وكذلك التكتلات الدولية، وسينعكس هذا على النظام الدولي ببعديه السياسي والاقتصادي، وفيما يلي بعض الأسئلة المتعلقة بهذا الفرض:**

1 - كيف عملت الجائحة على تقوية دور الدولة؟ وهل سيقود ذلك إلى عودة دولة الرفاهية في البلدان التي راهنت على دور السوق؟ وما مصير فئات المجتمع المهمشة والفقيرة؟

2 - هل ستتمكن الصين من الاستفادة من النجاح الذي حققته في السيطرة على الجائحة مقارنة بالدول الغربية القوية، بحيث لا تنحصر القوة في الاقتصاد والقوة العسكرية، وإنما تمتد إلى القوة الثقافية أيضًا، وتصبح الدولة المهيمنة عالميًا وتحتل المكانة التي تتمتع بها الولايات منذ زمن؟

3 - ما هي ملامح النظام الدولي الذي سيتطور في المستقبل؟ وكيف ستكون عليه حالة القطبية؟ وما هي المتغيرات التي سيكون لها التأثير الأقوى في تقدم دول إلى مركز القيادة وتأخر أخرى؟

4 - كيف يمكن بناء عولمة جديدة بمسحة إنسانية، بحيث تعمل على التقليل من مصادر الاختلافات المسببة للصراع بين المجتمعات، وتعمل على تقوية التعاون بينها؛ ليكون تعاونًا يقوم على مبادئ المساواة بدلًا من أسلوب السيطرة، واحترام تعدد الثقافات بدلًا من إلغاء التعدد لصالح ثقافة بعينها؟

5 - كيف يمكن تطوير نظام ديمقراطي يتم فيه التخلص من شوائب الديمقراطية الليبرالية، ويضمن ارتفاع درجة المشاركة السياسية للمواطنين، بعد بناء عقد اجتماعي جديد يكون فيه دور كبير للمؤثرين الفاعلين من خارج الدولة للمساهمة في عمليتَيْ المساءلة والمحاسبة على التقصير؟

# ما بين العولمة والحياة اليومية: تأملات متجددة

أ.د. حسن رشيق

# ما بين العولمة والحياة اليومية: تأملات متجددة

أ.د. حسن رشيق

أخبرني والدي كيف عاش وباء الطاعون في قريته (جنوب المغرب) ما بين سنتي 1940 و1945، لقد كان أمرًا لا يحتمل، وأنا أسمع وصفه للأجساد المتعفّنة، كان الشخص المصاب يهذي ويجن، وقد سكن الرّعب القرية ولم يعد لأحد الجرأة ليستسقي ليلًا، إذ كانت تتراءى له في كلّ مكان أشباح وعفاريت تخترق برؤوسها السماء، لم يكن النّاس يحصون أمواتهم، والوالد نفسه فقدَ العديد من أقاربه، منهم أخته سنة 1943 ووالدته سنة 1945.[1] ولإعداد كتابي عن والدَيّ، كان علي أن أقرأ ما تيسّر من تاريخ الأوبئة والمجاعات في المغرب، كنت أعتقد أن الأوبئة لن تفلت أبدًا من قمقوم الماضي، والذاكرة والتاريخ، كنت أعتقد أنها دفنت إلى الأبد، ثم طرأ وباء إبولا قبل سنوات، لكنه ظل محليًا، ومع وباء كورونا المستجدّ، نكتشف جانبًا قاتمًا للعولمة.

## تأمل متجدد للعولمة

من بين الأسئلة التي تُطرح والتي سيتم طرحها بدقة أكبر، تلك المتعلقة بتأمُّل متجدّد للعولمة، فقد بدأ الحديث عن عولمة مضادة، أو عولمة أخف، والقول بأن العالم قرية صغيرة صحيح بالنسبة للذين لديهم القدرة على

(1) حسن رشيق، عودة إلى زمن والدي، مقاربة أنثروبولوجية، ترجمة عز الدين العلام، جامعة ابن زهر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير، 2014.

اختـزال الزمـان والمـكان (وسـائل النقـل، تأشـيرات الدخـول والإنترنـت). عـلى أي حـال، يؤكـد وبـاء كورونـا أن العـالم صغـير، ولكـن أيضًـا أن القريـة الصغـيرة تتكـون مـن منـازل قوميـة متناثـرة ومنغلقـة عـلى نفسـها، تـداوي جروحهـا منفـردة، تحـد مـا اسـتطاعت مـن علاقاتهـا مـع الخـارج، وغالبًـا مـا تقتـصر هـذه الاسـتقلالية على الأشـياء الماديـة: الاكتفـاء الـذاتي للبـلاد في المجـالات الصناعيـة (تصنيـع الكمامـات)، الغذائيـة، الصيدليـة، الطبيـة، ومـا إلى ذلـك.

لكـن، لـن نرمـي الجمـل ومـا حمـل، فالعولمـة مجموعـة مـن العمليـات المتناقضـة تقـوم بهـا مؤسسـات لديهـا أفـكار ومصالـح متباينـة أو حتـى متعارضـة، يجـب إرسـاء تـوازن مـع الفاعلـين الإيجابيين-ومـا أكثرهـم- ويجـب أيضًـا أن يفـرض الباحثـون في العلـوم الاجتماعيـة- الذيـن غالبًـا مـا يتـم تجاهلهـم- هـذا التـوازن بـين العلـوم المحليـة والعلـوم الغربيـة بشـكل عـام، بـلا تبعيـة ولا انغلاق، والسـؤال الـذي يجـب طرحـه حـالًا ومسـتقبلًا مـن قِبَـل جميـع الباحثـين بغـض النظـر عـن أي انتـماء كان، يتعلـق بآثـار هـذه الأزمـة الصحيـة عـلى حرفـة الباحـث في العلـوم الاجتماعيـة، توجهاتهـا، وأسـئلتها المسـتقبلية، ومـا يـزال مـن المبكـر الإجابـة عـلى هـذه الأسـئلة بطريقـة دقيقـة، فهـي تسـتحق التريـث، ولـو أن المجازفـة في الأوقات الحرجـة محمـودة.

لـولا العولمـة، لم يكـن لهـذا الوبـاء أن ينتـشر بسرعـة، كورونا هي فرانكشـتين العـصر الحديـث، فهـي أيضًـا فـرت ونجـت مـن قـوة العلـماء وسريـة المختـبرات، هـذه هـي الآثـار الضـارة وغـير المتوقعـة للسـيطرة اللامتناهيـة عـلى الطبيعـة باسـم العلـم والتكنولوجيـا، وفي مرحلـة مـا، يبـدو وكأن الطبيعـة تثـور وتنتقـم حتـى.

الأنثروبولوجيا، أو أي علم آخر، يتم تعريفه على أنه توسيع لآفاق المعرفة البشرية، يمكن أن تساعدنا على فهم العلاقات المختلفة مع الطبيعة بشكل أفضل، بدءًا من «البدائي» الذي يقوم قبل القنص بطقوس يلج من خلالها في علاقة روحية مع بيئته، الغابة، الأدغال، داعيًا المغفرة من روح طرائده، ولا يتعلق الأمر بأن نصبح بدائيين أو رومانسيين، لكن دعنا- بكل تواضع- أن نتعلم منهم دروسًا: «الطبيعة ليست ملكنا». في المغرب، وربما في بلدان أخرى، يعتقد البعض أن الفضاء غير المأهول (غابات، سهوب، جبال) هي في حيازة الجن الذين سُمّوا بشكل ملطف «سادة المكان» (مّالين لَمْكان).

إذا تركنا جانبًا الغشاء الرمزي الذي يمكن أن يتغير وفقًا للثقافات، فإن فكرة التنمية المستدامة المبتذلة أحيانًا، تُعبّر من حيث الجوهر عن نفس المبدأ: الطبيعة ليست ملكًا لنا حصريًا. إن التفكير في الأجيال القادمة موقف كريم، رمزي وعقلاني، وما زلت أتذكر نصًا قرأته وأنا ابن العاشرة، نص يجب نقشه على الرخام: صبي يقترب من جده وهو يزرع نخلة (فسيلاً)، عبّرَ الحفيد عن دهشته لجده الذي لن يحيى حتى يأكل ثمرها، فأجاب الجد: غرسوا وأكلنا ونغرس ويأكلون. إنه ذروة التضامن، أن تفكر في أناس لم يروا النور بعد.

هذا التضامن تفتقره العولمة التي نعيشها، ولقد كشف الوباء عن احتماء الدول خلف حدودها، وعانى الإيطاليون من أنانية الدول المجاورة وعبّروا عنها بمرارة، لهذا لا ينبغي تعريف العولمة فقط على أنها اختزال تدريجي للزمان والمكان. أتلقى بريدي الإلكتروني في نفس الوقت من صديق يقطن أبعد قارة، بينما في الماضي، يستغرق وصول البريد أيامًا.

إن إحدى المهام التي تنتظرنا، بصفتنا باحثين، مواطني بلداننا ومواطني هذا العالم الممزق، هي مراقبة الأشكال الجديدة للعولمة في علاقتها مع عودة دولة قومية تحمي مواطنيها، وأحد الاتجاهات المرجوة هي مضاعفة الدراسات حول البعد الثقافي والرمزي للظواهر الاجتماعية، إذ توضح لنا الأزمة التي نمر بها مدى أهمية الثقافي، الرمزي، والقيمي: لقد لاحظنا، في المغرب، من خلال كل أشكال التواصل، عودة منتظمة للتضامن، للثقة في الدولة ومؤسساتها، للمواطنة، لتقوية الرابط الاجتماعي.

## الحياة اليومية والمعرفة المشتركة

نعتقد أن العلوم الاجتماعية في الدول العربية قد أهملت الحياة اليومية العادية[2]، وبعد ظهور الوباء، كان من السهل ملاحظة كيف انقلبت حياة الناس رأسًا على عقب، وفرضت قواعد جديدة. إنّ ما يصعب على الناس اجتماعيًا هو تعليق القواعد المعتادة التي هي معالم حياتهم اليومية، تعليق اللحظات التي تؤطر حياتهم، الدراسة، العمل، المسجد، المقهى، زيارة الأقارب والأصدقاء، التمارين البدنية، مشاهدة مباراة لكرة القدم، فلم يعد الوقت إيقاعيًا، تتشابه الأيام بالنسبة للأغلبية، والأسابيع أيضًا، لا بداية لها ولا نهاية، ويبقى الأصعب تبنّي معتقدات جديدة وسلوكيات جديدة في وقت وجيز، ونحن نعلم أن المعتقدات تستغرق وقتًا للقبول، للاستيعاب، للانتشار،

(2) انظر، محمد العيادي، حسن رشيق، محمد الطوزي، الإسلام في الحياة اليومية، ترجمة محمد وازيف ومحفوظ السويدي، الدار البيضاء، ملتقي الطرق، 2013؛ حسن رشيق، «اللباس بين التقاليد والأيديولوجيا والمعرفة المشتركة»، الدوحة، مجلة عمران،2012، عدد 2، ص 85ـ98.

وللتعميم، غير أن ما طُلب من الناس هو أن يعتقدوا فوريًا ويمتثلوا للتعليمات الرسمية.[3] وإليكم نكتة، وصلتني عبر وسائل الاتصال الاجتماعي، توضح هذه الصعوبات:

«لمدة ساعة، وأنا أشرح لشخص خطر فيروس كورونا، وكيف ينتقل من شخص لآخر، والاحتياطات الواجب اتخاذها، عدم المصافحة، غسل اليدين، واحترام التباعد الاجتماعي. في النهاية، يفاجئني، يعانقني، يقبّل جبهتي ووجهي داعيًا لي: الله يرحم من قرّاك/ علمك.»

لهذه النكتة مغزى: ليس من السهل التواصل من أجل وضع معايير جديدة وقواعد جديدة في أسرع وقت ممكن وبفعالية، فالمواطن في مركز اهتمامات الدولة ومؤسساتها قلب هدف تواصلها، غير أن معرفتنا الضعيفة بحياته اليومية في الأوقات العادية لا تساعدنا على فهم وإدارة حياته اليومية بشكل أفضل في أوقات الأزمات.

في الأوقات العادية، تعاني المجتمعات والعالم من اللايقين، ولكن بشكل متقطع فقط، ولكن حاليًا، كل يوم تقريبًا يواجه الناس اللايقين، فيكتشفون الشيء وعكسه، والخبر ونفيه، إذ لا يمكن لأحد أن يتوقع متى ينتهي الوباء، ومع سير المسؤولين ببطء نحو أفق غير واضح، يزداد اللايقين، لاسيما مع شبكات التواصل الاجتماعية، وما أكثر النصائح- جلها بدون ناصحين- التي

---

(3) حسن رشيق، «كيف تغير جائحة كورونا نمط الحياة وعادات المغاربة؟»، حاوره محمد تركي الربيعو، موقع قنطرة، 12 أبريل 2020. الرابط،
https://ar.qantara.de/content/حوار-مع-عالم-الأنثربولوجيا-المغربي-حسن-رشيق-المغرب-كيف-تغير-جائحة-كورونا-نمط-الحياة-وعادات

تخبرك بوجوب ارتداء الكمامة أم لا، ماذا تأكل، ماذا تشرب لمحاربة فيروس كورونا، وهكذا أصبحت بعض المواد، كالثوم، نادرة في أسواق مدينتي. ما المعلومة الصحيحة؟ ما الخبر الزائف؟ لمن تصغي؟ من تصدق؟ كل منا خبر كيف أن زمن كورونا محفوف باللايقين، بالتردد، بالحيرة، بسوء الفهم.

كيف يمكن تدبير المخاطر والتعامل مع اللايقين من منظور العلوم الاجتماعية؟ كيف يمكن تدبير عزل الناس في بيوتهم لمدة طويلة؟ كيف نعرف ما إذا كان المواطنون متحدين أم فردانيين (شراء الأسلحة من قبل الأمريكيين) لسنا مستعدين تمامًا للإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها، لأننا بالفعل لم ندرسها بما فيه الكفاية قبل حلول الخطر.

في أوقات الأزمات، من الضروري جدولة الأسئلة العاجلة والاتجاهات الجديدة في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا التي تلزم الجماعات البحثية، فلا نستطيع كباحثين منعزلين الإجابة عن هذه الأنواع من الأسئلة التي تتطلب بنيات بحثية وموارد بشرية ومالية مناسبة. يمكن أن نُرغم على الاستمرار في إنتاج أعمال جيدة بشكل فردي، وفي أحسن الحالات، يمكننا تشكيل مجموعات بحثية مؤقتة لإنجاز دراسات تتجاوز قدرة الفرد، غير أن الإيقاع سيكون بطيئًا، ونطاق الأسئلة المستجدة التي تطرحها هذه الأزمة على علماء الاجتماع محدودٌ جدًا.

تعتبر البنينة الفعالة لحقل العلوم الاجتماعية أمرًا ضروريًا، لأن هناك جداول أعمال ومهام تتجاوز قدرة الفرد المنعزل، والتي لا يمكن الاعتناء بها

إلا مـن قبـل مجموعـات مبنينـة مـن الباحثـين، والبنينـة ضروريـة لأنهـا تضمـن الخلـف، وتضمـن اسـتدامة المشـاريع وتجديدهـا، وتراكـم المعرفـة ونقلهـا، والاسـتجابة للمطالـب الاجتماعيـة والسياسـية لبلداننـا، في الأوقـات العاديـة كـما في أوقـات الأزمـات.

# سجن الحماية: جائحة كورونا مقاربة اجتماعية

أ.د. لاهاي عبد الحسين

# سجن الحماية: جائحة كورونا مقاربة اجتماعية

أ.د. لاهاي عبد الحسين

لا أحد يستطيع أنْ يغفل حقيقة أنّ الوباء الأسرع انتشارًا في العالم -والذي أطلق عليه كوفيد19، أو كورونا- أضرّ البلدان الغربية المتقدمة في العالم؛ مثل الولايات المتحدة الأمريكية، وإيطاليا، وفرنسا، وإسبانيا، وبلجيكا، وألمانيا...، أكثر بكثير مما فعل بالبلدان التي تعدّ متراجعة من النواحي التنموية.

جاءت كورونا لتصنع لحظتها التاريخية، وتتحدى مفاهيمنا وأفكارنا وكل ما اعتبرناه صحيحًا ومقبولًا حتى الآن، حيث درجنا على اعتداد أن ضرر العولمة يطال البلدان الأفقر والأقل تطورًا، وخلصنا إلى أنّ العولمة كظاهرة متعددة الأبعاد أسهمت في إضعاف الضعيف وتقوية القوي، وبدا ذلك صحيحًا.

من جانب آخر، ومن وجهة نظر علم اجتماع التنظيم، صار في عداد المسلّمات القول أنْ لا خوف على دولة المؤسسات. ولما كانت الدول الغربية المتقدمة دول مؤسسات فستنجو لا محالة، وبسهولة، أما بلداننا فسيتساقط فيها الأفراد كالبرق، وليس فقط مثل أوراق الشجر في فصل الخريف. هكذا بدا الوضع للوهلة الأولى، وقد أشارت كل التوقعات إلى قدرة الغرب المتطور النامي على النجاة، فيما ستنعدم قدرة بلداننا في الشرق العتيق على مواجهة

الجائحة، بَيْدَ أنّ تطورات انتشار الوباء وطرق التعامل معه أظهرت حقائق مختلفة على أرض الواقع.

ظهر واضحًا من خلال هذا السيناريو المألوف، كيف أنّ مجتمعات الشرق العربي والإسلامي انساقت إلى الغرب المتقدم، وتتبعت أخباره، وتعلقت بمقارناته في مواجهة الجائحة، فكان أنْ انتشرت الكمامات، وتشكّلت لجان خلية الأزمة على الصعيد الوطني، وفرض الحظر العام، واهتمت الحكومات تمامًا كما يفعل الغرب المتقدم، وقرع فشل القطاع الصحي في البلدان المتقدمة ناقوس الخطر في بلداننا، وكان لسان حال الفرد والمؤسسة على السواء في مجتمعاتنا يردّد «إذا انهار القطاع الصحي في بلدان متقدمة بدلالة عدد الإصابات، وتصاعد نِسَب الوفيات بالمقارنة، فكيف بنا!».

يُذكر أنّه طبقًا لإحصائيات جامعة جون هوبكنز الأمريكية، فقد تجاوز عدد الإصابات في العالم سقف المليونين حتى لحظة كتابة هذه المقالة، منتصف نيسان/أبريل من العام الحالي على مستوى العالم، فيما تجاوزت الوفيات (148) ألف نسمة، مسجلةً نسبةً تقرب من 7%، فيما اقترب عدد الإصابات من (700) ألف نسمة، واقترب عدد الوفيات من (34) ألف نسمة؛ ليسجل نسبة تزيد على 5% في الولايات المتحدة الأمريكية.

وتشير أحدث التوقعات إلى أنّ عدد الوفيات في الولايات المتحدة سيصل إلى أكثر من (60) ألف حالة، بحلول آب/أغسطس القادم، وهذا ما أدى إلى موجةٍ من انتقادات حادّة ومتسارعة للأداء الحكومي، وتحميل إداراتها مسؤولية ذلك، بسبب الإهمال، وعدم استباق الأوضاع، وتهيئة الخُطط اللازمة لتفادي نتائجها الكارثية، وقد عبّر عالم اللسانيات والفيلسوف الأمريكي نعوم

تشومسكي البالغ من العمر (91) عامًا عن ذلك بالقول: «كان يمكن تفادي خطر انتشار الوباء، بسبب توفر معلومات عنه، وصلت منظمة الصحة الأممية منذ نهاية العام الماضي، ولكن الولايات المتحدة تجاهلتِ الأمر، وتبعتْها كلٌ من بريطانيا وألمانيا، فيما اتخذت دول أخرى؛ مثل الصين، وكوريا الجنوبية، وتايوان، وسنغافورة إجراءات محدّدة بغرض الوقاية»[1].

وقد بدا أنّ انهيارَ القطاع الصحي في الولايات المتحدة بدلالة الإحصائيات المشار إليها -والتي تشكل 31% من عدد الإصابات في العالم- أثارَ هلع العالم، من حيث أنّه غالبًا ما يُنظر إلى القطاع الصحي الأمريكي على أنّه الأكثر تقدمًا وكفاءة وفعالية. أضف إلى ذلك أنّ إصابة عدد من الأشخاص المعروفين، من أمثال رئيس الوزراء البريطاني بوريس جونسون، وشخصيات رياضية وفنية معروفة أخرى بهذا الفيروس، أسهمت في زيادة درجة القلق والتوتر، حيث ظهر للعامة أنّ الفيروس يقتحم الجميع، ولا يميّز بين مجتمع متقدم أو نامٍ، ولا يفرّق بين شخصية معروفة ومشهورة وأخرى ضامرة ومجهولة، وكان من شأن أمورٍ من هذا النوع أنْ تنعش صنعة «تطيير» الإشاعات التي اتسم بعضها بالخطورة، كما في أنّ «الفيروس ينتقل عبر الهواء»، ولم يكن هذا إلا محض هراء.

وبالعودة إلى لغة الأرقام في مجتمعاتنا فقد بدا أنّ عدد الإصابات -وبالتالي عدد الوفيات- أقلّ بكثير، باستثناء إيران التي بلغ عدد الإصابات فيها إلى أكثر من 78 ألف نسمة، ولم تصل كثير من الدول العربية؛ مثل

1) Aljazeera.com/news/2020/04/noam-chomsky

المملكة العربية السعودية سقف السبعة آلاف إصابة، وكذلك الحال في بلدان أخرى، من بينها العراق.

صحيح إنّ هناك حالات إخفاق وفشل وتقاعس، وحتى امتناع عن الإبلاغ، بيد أنّ الوضع من هذا الجانب لم يضرب هذه البلدان بمقتل، ولكن الذي أصابها بمقتلٍ إدراك حجم التبعية الفكرية والإعلامية والعلمية لهذه البلدان للبلدان الغربية المتقدمة، وهذا ما يفسّر حالة الاضطراب والقلق التي أدت -من بين ما أدت إليه- إلى استدخال حالات القلق والتوتر، ربما بسبب ما أسماه الدكتور عزيز البطيوي: (واحدية العلم) الذي ساهم بتعطيل «الآلية التنظيرية للعقل العربي»[2].

إن العالم ينظر إلى العلم على أنّه واحد، فيما أظهرت جائحة كورونا أنّ الأمر ليس كذلك، وبخاصة على مستوى العلوم الإنسانية والاجتماعية، وتتباين ردود الفعل، وتتعدد طرق التعامل مع الفيروس بحسب عوامل كثيرة، من بينها الإيمان، والخجل، والتغطية تبعًا لذلك، والتغاضي، أو التسليم بالقدرية.

لقد «حظيت» مجتمعاتنا بنصيب من الإصابات، ولكنها لم تصل إلى مستوى رفع الراية البيضاء في مواجهتها، وهذا ما يطرح على المشتغلين في مجال علم الاجتماع، والعلوم الاجتماعية على وجه العموم، قضية في غاية الأهمية، تتمثّل في فكرة أنْ نعود إلى إمكاناتنا، ونبحث في خصوصياتنا.

---

(2) البطيوي، عزيز، علم اجتماع إسلامي: المسوغات والمتطلبات، أكادير، المغرب، بحث قدِّم في الندوة الدولية المعنونة بـ: «علم الاجتماع وسؤال الأقلمة»، السبت، 26 تشرين أول (أكتوبر) 2019، مركز ابن خلدون للعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قطر.

صحيح إنّ العالم متشابك، وأنّ مجتمعاتنا ترتبط بدول العالم على مستويات متعددة، ولكن آن لنا إدراك أننا نتصف بما لا تتصف به مجتمعات أخرى.

إنّ ما ظهر في الغرب المتقدم من انهيارٍ مؤسّساتي يبدو أنّه طال العديد من المؤسسات، بما فيها منظمة الصحة الدولية، وهذا ما رصده ميشيل فوكو فيما أطلق عليه تفكيك المؤسساتية Deinstitutionalization.

كان فوكو قد تطرق من خلال هذا المفهوم إلى انهيار نظام الصحة النفسية والمدرسية في النصف الثاني من القرن العشرين، كجزء من إسهامه في مجال نظريات ما بعد الحداثة، ويبدو أنّ ما قاله آنذاك ينطبق على ما يحدث اليوم، أو يُعد امتدادًا له.

لقد فضح فيروس كورونا الشرس الرتابة التي عاش في ظلها النظام الصحي في البلدان الغربية المتقدمة، الذي انشغل بتحديثات جانبية أكثر منها جوهرية، ولعل هذا ما جعل الفرد في هذه المجتمعات يعول كثيرًا على المؤسسات الصحية في بلاده، فيما لا يفعل الفرد في بلداننا ذلك. ومن حيث لا نتوقع، بدا أنّ هذه المعادلة قدّمت بطاقة إنقاذ للمؤسّسات الصحية في مجتمعاتنا، التي لا تَعِدُ بالكثير، وإنْ فعلت؛ خانتها قلة عددها بالنسبة إلى حجم السكان، وانخفاض نوعية الخدمات المتوقعة، مما جعل المواطن يعتمد على مؤسسات بديلة، تقف الأسرة في مقدمتها. هذا باستثناء دول مجلس التعاون الخليجي التي تُعرف بكثافة سكانية واطئة على مستوى السكان الأصليين المحليين، مع الأخذ بالاعتبار التحديات التي يطرحها حجم العمالة الوافدة فيها.

مـن جانـب آخـر، كان للتحـركات الحكوميـة في البلـدان الغربيـة المتقدمـة التـي طالتهـا كورونـا أنْ أظهـرت مـا تناولـه فوكـو أيضًـا، وأطلـق عليـه الحكوماتيـة Governmentality، والتـي تشـير إلى تزايـد النزعـة التحكميـة السـلطوية عـلى صعيـد الحيـاة اليوميـة، خـارج سـيطرة الدولـة كنظـام سـياسي يعمـل على المسـتوى الكبـير، فقـد تحـول ملايـين البـشر بـين ليلـة وضحاهـا إلى مـا يشـبه الفـرد الـذي ينتظـر سـماع «البيـان رقـم واحـد»، الـذي يعلـن فيـه جماعـة مـن العسـكر التمـرد عـلى النظـام السـياسي القائـم بصيغـة انقـلاب أو ثـورة.

لقـد نجحـت الحكومـات في إخضـاع المواطـن لحظـيرة الدولـة، التـي صـار بمقدورهـا أنْ تصـدر إملاءاتهـا وتعليماتهـا وأوامرهـا باسـم مكافحـة كورونـا! وقـد التقـت عـلى هـذا الصعيـد كلتـا المجموعتـين مـن الـدول؛ الـدول الغربيـة المتقدمـة والـدول الشرقيـة الأفروآسـيوية؛ لممارسـة السـلطة، وفـرض الهيمنـة، وإخضـاع المواطـن لمزيـد مـما يطلـق عليـه في الأدبيـات الاجتماعيـة بـ «وسـائل الضبـط الاجتماعـي»، ولا يخفـى عـلى أحـد مـا لهـذه التطـورات الخطـيرة مـن أذى وضرر يلحـق بالفـرد عـلى المسـتويين؛ القريـب والبعيـد. إنّـه الإيـذان بممارسـة خفـض آخـر لنوعيـة الحيـاة الاجتماعيـة في الغـرب والـشرق، وهنـا نتلاقـى.

ويسـتطيع علـماء الاجتـماع العرب- أو المحليـون في أي جماعـة يعملون فيها- تبـيّنَ الاختلافـات المهمـة بـين بنياتهـم الاجتماعيـة، وبنيـات مجتمعـات أخـرى، مـن قبيـل المجتمعـات الغربيـة المتقدمـة، حيـث طـورت هـذه البلـدان -عـلى سـبيل المثـال- إمكانـات ماديـة وتقنيـة مهمـة لتقديـم المسـاعدة «للمواطـن ومـن خـلال المواطـن»، وذلـك عـن طريـق فـرض نظـام صـارم ومنضبـط لدفـع الضرائـب، مـما حملهـا مسـؤوليات كثـيرة، وقـد حظـي عـددٌ مـن الشرائـح الاجتماعيـة المعـوزة،

مـن أمثـال المسـنين والعجـزة والمـرضى برعايـةٍ جنَّبتْهـم الجـوع والتـشرد والألم،-مـن خـلال أنظمـة مـن هـذا النـوع، فـكان أنْ ازداد عـدد مؤسسـات مـن هـذا النـوع لغـرض الإيـواء والرعايـة، وبـدا مـن الطبيعـي والعمـلي أنْ تـزداد مؤسسـاتٌ مـن هـذا النـوع في مجتمعـات ذات نزعـة فرديـة متطرفـة، إلى جانـب صِغـر حجـم الأسرة فيهـا، والـذي لا يزيـد في العـادة عـن اثنـين أو ثلاثـة أفـراد في الغالـب. هـذه مشـكلة لا تعـاني منهـا مجتمعاتنـا، حيـث لا زالـت الأسرة في مجتمعاتنـا تتحمـل الكثـير مـن المسـؤوليات تجـاه الشرائـح الاجتماعيـة المذكـورة، وتقـوم بتقديـم الرعايـة اللازمـة لهـم.

صحيـح إنّ أعـداد المهملـين والمطرودين مـن أسرهـم، بمـا في ذلـك المودعـين «طواعيـة» منهـم، بـدُور المسـنين والعجـزة والمـرضى تـزداد، ولكـنّ هـذه الزيـادة لا تـزال في حدودهـا الدنيـا، إذا مـا قورنـت بحجـم السـكان في بلداننـا. والحقيقـة، لـو أنَّ الدولـة اهتمـت بـالأسرة التـي تتـولى رعايتهـم لأسـهمت في خفـض الحـالات المسـتجدة مـن السـائلين لمعونة أو رعاية، تشـتمل عـلى الإيواء والصحة والمسـاعدة، وهـذه عـبرة يمكـن الحصـول عليهـا مـن متابعـة طـرق التعامـل مـع هـذه الشرائـح في البلـدان الغربيـة المتقدمـة، وتتمثـل المعادلـة في أن الغـرب المتقـدم قـدم الرعايـة الماديـة، ولكنـه فشـل في تقديـم المعونـة النفسـية والمعنويـة ذات الطبيعـة الأخلاقيـة، التـي يصعـب تصنيعهـا أو شراؤهـا. لكـن في المقابـل نجـد الـشرق يفتقـر للإمكانـات الماديـة التـي تسـاعده عـلى اسـتكمال الرعايـة المعنويـة والإنسـانية بجوانـب ماديـة ضروريـة؛ لتقليـل المتاعـب، وتوفـير المسـتلزمات الماديـة، كالـدواء ومـا إليـه مـن حاجـات أساسـية.

ويمكن القول إنّ جائحة كورونا تتطلب معالجة على مستويين؛ آني فوري وآخر بعيد المدى. وفيما يتعلق بالمستوى الأول، فإن مما لا شك فيه أنّ هذا الوباء الذي لم تتضح خصائصه بعد، ولم تتمكن أرقى المؤسسات الصحية في العالم من تطوير لقاح لمعالجته، يستلزم احترام الإجراءات الفنية والعملية التي توصي بها منظمة الصحة العالمية، ريثما يتضح ما إذا كانت مؤسسات من هذا النوع تجاوزت أزمة تلكؤها وتعثرها؛ لتنال ثقة الدول والمواطنين في العالم، من جديد، ويظهر ضمن هذا المستوى أهمية احترام قاعدة «التباعد الاجتماعي» أو «التباعد الجسدي» أو «الأمان الاجتماعي»، وهذه مصطلحات ولّدتها الظروف الراهنة، وتستخدم بطرق متقاربة من حيث المعنى، وهي تعني عمليًا المحافظة على مسافةٍ لا تقلّ عن ستة أقدام أو مترين بين شخص وآخر، وتجنب التجمعات العامة، وحتى الأسرية التي يزيد عدد الأشخاص فيها عن خمسين شخصًا، بحسب أحدث التعليمات الدولية.

ويهتم المستوى الثاني بمسألة وضع معالجاتٍ لتقليل الآثار السلبية لإجراءات الحجر وفرض الحظر، التي أدت حتى اللحظة إلى ارتفاع معدلات العنف الأسري، كما تشكو كثيرٌ من الأمهات من زيادة أعبائهن؛ لوجود الأطفال في البيت لفترات طويلة، وقد يدعو هذا إلى الاعتراف بالجهد الذي تبذله المدارس، ليس فقط من خلال تقديم المعرفة والعلوم المتنوعة، ورعاية طاقات الأولاد والبنات، وتوجيهها وجهة بنّاءة، وإنّما أسهمت باقتسام الوقت للتخفيف من أعباء الأسر أيضًا.

هذه وغيرها من الأمور تتطلب الاعتراف بها، والأهم من ذلك أنْ نتّعظ بتجربة البلدان الغربية المتقدمة، ولا نسمح بالتخلي عن المؤسسة الأكثر

تقليديـة في المجتمـع، ألا وهـي: «الأسرة»، مـع توفـير مزيـد مـن الاهتـمام والدعـم لهـا لتواصِـل دورهـا البنّـاء، الـذي يمكـن أنْ يسـهم في خفـض المعانـاة الإنسـانية لأنـاسٍ بلغـوا أعـمارًا متقدمـة، أو ابتلـوا بأمـراض أو حـوادث أودت بإمكاناتهـم الذاتيـة لخدمـة أنفسـهم بأنفسـهم.

وعـلى الصعيـد العراقـي أعلـن وزيـر التخطيـط السـيد/ نـوري الدليمـي أنّ عـدد المتقدمـين للحصـول عـلى المعونـة الحكوميـة -التـي أقرّتهـا خليـة الأزمـة مؤخـرًا، والبالغـة (30) ألـف دينـار عراقـي فقـط- بلـغ أكـثر مـن مليـونَيْ أسرة، فيـما فـاق عـدد الأفـراد سـقف الـ (13) مليـون.

سيسـهِم العـراق باحتـواء الفـيروس لـو أنّـه زاد مبلـغ المعونـة، وغطـى المتقدمـين لهـا قـدر الإمـكان اعترافًـا بـدور الأسرة؛ لأداء دورهـا التاريخـي في هـذه الفـترة الحرجـة، تجاوبًـا مـع الظـروف السـائدة، وتمكينًـا لهـا مـن القيـام بمهامهـا، وبذلـك سـيقدم العـراق -مثـلًا- في الاسـتخدام الواعـي للتقديـرات العلميـة التـي تعـول عـلى الأسرة، وتضـع الثقـة فيهـا، وإسـهامًا بالتقليـل مـن العـبء الـذي يمكـن أنْ تتحملـه مؤسسـات صحيـة تحـاول مسـتطاعها في ظـروف لا تحسـد عليهـا.

# ثانيًا: أزمة كورونا وانعكاساتها على العلوم السياسية والعلاقات الدولية

# العلوم السياسية:
# مرحلة ما بعد كورونا

أ.د. التجاني عبد القادر حامد

# العلوم السياسية: مرحلة ما بعد كورونا

أ.د. التجاني عبد القادر حامد

نحاول في هذا البحث الاستكشافي القصير أن ننظر فيما إذا كان متوقعًا أن تُحدث «أزمة كورونا» تغييرًا في اتجاهات العلوم السياسية ومسلّماتها الكبرى، وأن ننظر في نوعية الأسئلة التي تطرحها هذه الأزمة على علماء السياسة بصفة عامة، وسنبدأ بتقديم وصف للحدث وما ترتب عليه، ثم نتحدث عن بعض مسلّمات العلوم السياسية، ونختم بما يمكن أن يقع من تغيير في اتجاهاتها بعد كورونا.

## 1 - ماذا حدث؟

ظهر الوباء القاتل- والذي عُرف باسم كورونا، ثم باسم كوفيد 19- في ديسمبر 2019 في منطقة (ووهان Wuhan) بالصين، وقد ذُكر أن مصدر الوباء يعود إلى السوق العمومي للأسماك، حيث تناولت سيدة في التاسعة والأربعين من عمرها حساء الوطواط (bat soup)، فأصيبت بأعراض مرض فتاك لم تعرف حقيقته في أول الأمر، إلا أن أحد الأطباء الشباب، دكتور (ونليانق Li Wenliang، 33 سنة) استطاع في الثالث والعشرين من ديسمبر 2019، أن يتعرف على الفيروس القاتل، فقام على الفور بنشر تحذير صارم لزملائه الأطباء على صفحته الخاصة، ولكن سرعان ما تم استعداؤه إلى مكتب الأمن العام ووُجِّهَ له اتهام بأنه ينشر معلومات كاذبة تضر بالنظام الاجتماعي، وطلب منه

سحب الإعلان، وبعد أيام قليلة أُصيبَ الدكتور (لي) نفسه بأعراض المرض فأُخذ إلى المستشفى حيث قام للمرة الثانية بنشر صورته وهو على سرير الموت، يتنفس من خلال الأجهزة الصناعية، وكان ذلك هو المشهد الذي أرعب العالم كله، أما إعلان وفاته فقد أحدث رنة حزن عميقة في طول البلاد وعرضها، كما أثار موجة من الغضب العارم في الوسائط الاجتماعية في الصين، مطالبةً الحكومة المحلية بالاعتذار، ومطالبةً الحكومة المركزية بحرية الكلام، ولم تصبح وفاة الدكتور (لي)كارثة سياسية للرئيس (شيى جنبنق Xi Jinping) وحسب، وإنما غدت كارثة عالمية.

انتشر الفايروس في كل أقطار العالم تقريبًا خلال ثلاثة أشهر فقط من التعرف عليه، وفي أقل من أربعة أشهر بلغ عدد المصابين في أنحاء العالم نحو مليونَي مصاب، وبلغ عدد الوفيات نحو مئة ألف نسمة، وأصيب آلاف الملايين من البشر بحالة من الرعب، وقد أجبرتهم السلطات على البقاء في المنازل، ومنع التجول إلا عند الضرورة القصوى، وترتبت على ذلك آثار كارثية على الاقتصاد العالمي، من توقف للصناعات، وانهيار في أسواق المال العالمية، وانخفاض غير مسبوق في أسعار النفط، وفقدان لملايين الوظائف في القطاعين الخاص والعام، وبينما كانت الأزمة تتفاقم يومًا بعد يوم، صار الأطباء والممرضون يتعرضون هم أنفسهم للخطر في المستشفيات، وذلك نسبة للنقص الشديد في المعدات الطبية والأقنعة الواقية من المرض، وبينما كان العلماء والباحثون يعكفون في مختبراتهم ليلًا ونهارًا للتعرف على طبيعة الفايروس القاتل، وكيفية مواجهته، كان السياسيون وقادة الدول يعلنون «الحرب» على عدو غير معروف لديهم، وبأسلحة غير متوفرة في مخازنهم،

وبناء على هذا فقد أصيبت كثير من الدول بالعجز التام عن أي فعل يوقف الكارثة، وانحصر دور السياسيين في إصدار التعليمات بمنع السفر، والدعوة إلى التباعد الاجتماعي، والبقاء في المنازل إلى مدد غير معلومة.

## 2 - اهتمام العلوم السياسية: مرحلة ما قبل الكارثة

كانت العلوم السياسية قديمًا تعتمد في مسلّماتها الكبرى على الفلسفة والدين، فكان الفلاسفة والحكماء والمصلحون الدينيون- سواء في الغرب الأوربي، أو في الشرق الهندي والصيني، أو في الشرق الأوسط اليهودي والمسيحي والإسلامي- هم من يبيّن طبيعة النفس الإنسانية، ويقرر في طبيعة الاجتماع الإنساني، وارتباطاته بالقوانين الإلهية، وفي معنى السعادة وكيفية تدبير الشأن العام في المجتمع من أجل تحقيقها، ويحدد من الذي يتولى القيادة فيه، وما مصدر مشروعيته، إلى غير ذلك من الأمور النظرية التي يدور حولها الجدل بين فلسفة وأخرى، ودين وآخر.

غير أن العلوم السياسية قد انفصلت منذ عهد التنوير عن الفلسفة والدين- لأسباب لا يتسع المجال لذكرها-، لتتحول إلى علم يحاكي علوم الطبيعة، وترتب على ذلك الانفصال والتطبيع أن صار علماء السياسة لا يهتمون كثيرًا بالمسلّمات الأولية الكبرى، ولا يشغلون أنفسهم بالبحث فيها، أما إذا أحس أحدهم بالحاجة إليها، فإنه يلتفت إلى ما تم إنجازه في الحقول المعرفية المجاورة له، مثل علم الاجتماع وعلم النفس وعلم الإنسان وعلم الاقتصاد، وهي علوم لا تختلف عن علم السياسة في تباعدها عن الأصول الفلسفية والدينية، ولا يوجد بينها اتفاق على رؤية كلية للإنسان، أو طبيعة النفس الإنسانية، أو علاقة الإنسان بالغيب، وصارت معظم هذه العلوم، -ومن بينها

العلـوم السياسـية-، لا تجـد مرجعيـة كـبرى ترتكـز عليهـا غـير بعـض نظريـات علـم النفـس، مثـل نظريـة العـالم الـروسي الشـهير بافلـوف عـن «التعلـم الشرطـي» والاسـتجابة المكتسـبة، فيُنظَـر إلى الإنسـان باعتبـار أنـه «كائـن اقتصـادي»، أي أنـه طاقـة أو أداة إنتاجيـة، وأن مـا يدفعـه للإنتـاج هـو الحافـز المـادي، كـما يُنظَـر إليـه مـن ناحيـة أخـرى بأنـه أداة اسـتهلاكية، وأنـه يمكـن أن يدفـع للاسـتهلاك عـن طريـق الإعـلان والدعايـة، وصـارت المفاهيـم الحاكمـة في الحقـل السـياسي لا تتجـاوز مفاهيـم اللـذة والألم، والمنفعـة والقـوة، والربـح والخسـارة، والكلفـة والفائـدة ونحوهـا، أمـا مـا عداهـا مـن مفاهيـم الفـداء والتضحيـة والتضامـن والإيثـار فلـم تعـد تذكـر إلا في حـدود ضيقـة.

## 3 - أسئلة واهتمامات جديدة

إن نظـرة متأنيـة لكارثـة كورونـا الراهنـة؛ تصيـب الباحـث في العلـوم السياسـية-كما تصيـب زمـلاءه في العلـوم الاجتماعيـة المجـاورة- بقـدر كبـير مـن الحـيرة والقلـق، وتدفعـه لطـرح كثـير مـن الأسـئلة عـن المسـلّمات النظريـة التـي كان ينطلـق منهـا، وسـنكتفي في هـذا المقـام بطـرح أسـئلة محدودة تتعلـق بطبيعة الدوافـع الإنسـانية، وحـدود القـوة الماديـة، والتنظيـم الاجتماعـي.

### (أ) الدوافع المادية والأخلاقية

- مـا طبيعـة الدوافـع التـي تجعـل الفـرد يخاطـر بحياتـه مـن أجـل إنقـاذ حيـاة الآخريـن؟ وذلـك كـما فعـل العاملـون في القطـاع الصحـي، وصغـار العـمال في البقـالات والمطاعـم، وعـمال النظافـة.

- إلى أي مدى يمكن أن يقال إن «الحافز المادي» وحده هو الذي جعل دكتور (لي) مثلًا يكسر حاجز الخوف والصمت، ويتحدى السلطة السياسية، ويعلن للعالم كله خطورة الفايروس القاتل؟

- أليس من الملاحظ أن هذه الأزمة قد أوضحت أن الدور الذي تلعبه «القيم الأخلاقية» يفوق حسابات الربح والخسارة؟

**(ب) حدود القوة**

لقد كانت الحكومات في الحروب القديمة تستطيع أن تحدد «العدو»، وأن تقوم من ثم بوضع أهدافها واختيار أسلحتها، وكانت «قوة» الدولة تقاس بعدد جيوشها، وأسلحتها النووية، وأساطيلها الجوية والبحرية، ولكن في الحالة الراهنة فإن العدو غير مرئي، ومعركته غير محددة، ولا تصلح معه الأدوات والأسلحة التي كانت تستخدم سابقًا، لقد أصبحت الأدوات الجديدة هي الكمامات وآلات الفحص الطبي، وأجهزة التنفس الصناعي، وصار الجنود المقاتلون هم الأطباء والممرضون وسائقو عربات الإسعاف. إلى أي مدى توضح هذه الكارثة أن المؤسسة السياسية التقليدية لم تعد قادرة أو غير مؤهلة للتصدي «للعدو الجديد»، وغير قادرة على مواجهة الضغط النفسي والتصدع الاجتماعي الذي يُحدِثُه، وأنه يجب عليها بالتالي أن تعيد مفهوم «القوة» و«الأمن القومي»، وأن تجعل قضايا الصحة العامة والبيئة والطب على رأس أولوياتها؟ وإلى أي مدى صارت النظم السياسية عرضة للترنح والسقوط نتيجة لظهور أخطار من نوع جديد؟

### (ج) كفاءة نظام الإنتاج الرأسمالي أم عجزه؟

كيف تعجز أكبر دولة صناعية في العالم (مثل الولايات المتحدة) أن توفر كمامات عازلة للعاملين في الحقل الطبي؟ علمًا بأن قيمة الكمامة لا تبلغ دولارًا واحدًا. ألا يستدعي ذلك التشكيك في قدرة النظام الرأسمالي وكفاءته؟ ومن ناحية أخرى كيف نفسر سلوك بعض الرأسماليين الذين تبرعوا بكميات ضخمة من الأموال لصالح العاملين في القطاع الطبي، مثل حالة (بيل غيتس Bill Gates)، و(جاك ما Jack Ma) الذي أطلق شعار: (عالم واحد، ومعركة واحدةOne World, One Fight)

مؤكدٌ لقادة العالم أننا لن نستطيع أن نهزم هذا الفايروس ما لم نزِح الحدود الفاصلة بين مواردنا، وما لم نتقاسم التقنية، ونتبادل الدروس التي حصلنا عليها بعد جهد جهيد، وقد قامت شركة (علي بابا) بتوزيع المعدات الطبية لكل من اليابان وكوريا الجنوبية وبعض دول أوروبا والعديد من الدول الأفريقية، وخصصت ملايين الدولارات للمراكز البحثية التي تعمل على اكتشاف علاج ناجع للمرض.

### (د) تيارات اجتماعية جديدة؟

يلاحظ من خلال هذه الكارثة أن الخوف من العدوى، وانهيار الاقتصاد، وتوقف الحركة والإنتاج عوامل قد تضافرت لتجبر الناس على التباعد الاجتماعي، والبقاء الإجباري في المنازل، ولكن ألا يلاحظ أيضًا أن هذه العوامل ذاتها قد حركت روح التضامن الاجتماعي والتضحية؟ ألا تشير هذه الروح إلى إمكانية حدوث تحول نفسي واجتماعي كبيرين قد يتبلوران فيما

بعد إلى نوع من الفعل السياسي الجديد الذي يقوم على التضامن الشعبي، والذي قد يؤدي إلى تغيير في أولويات النظام السياسي والاقتصادي في كثير من البلدان الغربية؟ إلى أي مدى صارت تكنولوجيا المعلومات سلاحًا قويًا بيد الجماهير؟ إلى أي مدى سيتعاظم دور الخبراء والعلماء في توجيه السياسة العامة للدول، وكيف سيؤثر ذلك على النظم الديموقراطية التي تقوم على الانتخاب، والنظم الأوتوقراطية التي تخالفها؟

.

# أثر أزمة كورونا على دراسة العلاقات الدولية بين الحل، التأمل، وإعادة اكتشاف الذات

د. مشاري حمد الرويح

# أثر أزمة كورونا على دراسة العلاقات الدولية بين الحل، التأمل، وإعادة اكتشاف الذات

د. مشاري حمد الرويح

حتى الآن تتعامل أغلب الرؤى الأكاديمية وغير الأكاديمية مع أزمة كورونا الحالية من منطلق حل المشاكل (Problem-Solving) وليس منطلق التأمل (Reflection)، بمعنى آخر، فإن أغلب تلك الرؤى تحاول أن تجاوب على سؤال: «كيف يمكننا حل مشكلة كورونا حتى نستطيع العودة إلى عالمنا، ونستكمل مسيرتنا في إطار الهياكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية القائمة؟» وليس على سؤال: «كيف وصلنا إلى هنا؟ أين أخطأنا؟ ما هي الرؤى السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والروحية البديلة التي قد تقودنا إلى مسار أكثر إنسانية ومسؤولية وأمنًا؟» قد يرى البعض أن هذا الميل نحو التعامل مع أزمة كورونا الحالية من منطلق حل المشاكل مُتفَهَّم في ظل حدة الأزمة والحاجة للخروج منها بأقل الخسائر البشرية والاقتصادية، ومن ثم يأتي التأمل، والنقد، والإصلاح بعد وليس في خضم الأزمة. مع ذلك، أعتقد أن هناك من الأسباب ما يكفي لتوقع استمرار هذا التعامل الأداتي مع الأزمات العالمية ليس فقط في واقع السياسة الدولية ولكن في دراستها أيضًا.

بحسب حدة، ومدى، ونطاق الأزمة الحالية سيكون مستوى مساءلة واستشكال مسلّماتنا وافتراضاتنا الكبرى حول العلاقات الدولية ودراستها سواء في دوائر صنع القرار أو الدوائر الأكاديمية والبحثية بالوتيرة الحالية، وعلى

الرغـم مـن حـدة الأزمـة وتسـارعها إلا أننـي أعتقـد- حتـى الآن[1] - أنهـا لـن تـترك ذلـك الأثـر العميـق في الوعـي الجمعـي السـياسي أو البحثـي الـذي ينتـج عنـه مراجعـة شـاملة لتلـك الافتراضـات والمسـلمات الكـبرى.

بمنطـق الاقتصـاد السـياسي الـدولي، والـذي أعتقـد أنـه سـيكون أحـد الحقول الفرعيـة الأكـثر اسـتفادة مـن الأزمـة الحاليـة، فـإن أثـر تلـك الأزمـة سـيدفع في اتجـاه تطويـر الإجابـة عـلى سـؤال: كيـف ننتـج مـا ننتجـه بشـكل أكـثر كفـاءة؟ وليـس لمـاذا ننتـج مـا ننتجـه؟ الثـاني يقـود إلى ابتـكار منتجـات جديـدة (Product Innovation) بينـما الأول يقـود إلى ابتـكار عمليـات وآليـات أكـثر كفـاءة لإنتـاج مـا ننتجـه (Process Innovation). أعتقـد أن دراسـة العلاقـات الدوليـة سـتحاكي هـذا الانغـماس في التفاصيـل والتقنيـات والآليـات مبتعـدة أكـثر وأكـثر عن مسـاءلة الأسـس المعرفيـة والقيميـة لإنتـاج المعرفـة.

يقـدم كريسـتيان رويـس سـميت تعريفًـا مفيـدًا في هـذا السـياق للنظريـة كخطـاب عمـلي (Practical Discourse)[2] وأن نظريـات العلاقـات الدولية جميعها تسـعى للإجابـة- ولـو ضمنيًـا- عـلى سـؤال «مـاذا يجـب أن نفعـل؟». أو بصياغـة أكـثر وضوحًـا: « انطلاقًـا مـن افتراضاتنـا المعرفيـة والوجوديـة والتزاماتنـا القيميـة،

---

(1) كتبـت هـذه السـطور بتاريـخ 1/4/2020، في هـذا اليـوم اقـترب عـدد الحـالات المصابـة مـن المليـون حـول العـالم والوفيـات مـن الخمسـين ألـف.

(2) Christian Reus-Smit &Duncan Snidal, Between Utopia and Reality: The Practical Discourses of International Relations, in Christian Reus-Smit and Duncan Snidal (eds.) The Oxford Handbook of International Relations, (New York: Oxford University Press, 2008) P. 20.

مـا هـي القضايـا الدوليـة الأحـق بالاهتـمام؟ وكيـف يتوجـب علينـا التعامـل معهـا؟». هـذه الصياغـة المختـصرة والبارعـة في نفـس الوقـت تقـدم لنـا خريطـة لتوجّـه دراسـة العلاقـات الدوليـة المُتَوقّـع لمحـاكاة واقعهـا، والّـذي قـد لا تدفعـه الأزمـة الحاليـة للتأمـل الـكافي والاهتـمام بمسـاءلة «افتراضاتنـا المعرفيـة والوجوديـة والتزاماتنـا القيميـة»، وحتـى «القضايـا الدوليـة الأحـق بالاهتـمام»، فقـط «بكيفيـة التعامـل معهـا» بشـكل أكـثر كفـاءة.

هـذا النمـط في الحركـة نحـو إنتـاج معرفـة تفصيليـة تقنيـة للإجابـة عـلى أسـئلة عمليـة وحـل مشـكلات واقعيـة بعيـدًا عـن التأمـل والنقـد للافتراضـات؛ كان قـد تشـكل منـذ سـنوات في تخصـص العلاقـات الدوليـة في إطـار الدعـوة إلى التخـلي عـن النظريـات الكـبرى (Grand Theories) في العلاقـات الدوليـة ومـا تشـكل حولهـا مـن برامـج بحثيـة، وتَبَني نظريـات متوسـطة النطـاق (Mid-range Theories) بـدلاً مـن ذلـك، بـل والتركيـز عـلى اختبـار الفرضيـات (Hypothesis Testing) إمبريقيًـا[3]، وهـذا الانحـدار مـن التفكـير العقـلي إلى الملاحظـة الإمبريقيـة؛ يغلـق نافـذة مهمـة للنظـر في الافتراضـات التـي بُنيَـت عليهـا النظريـات الكـبرى في العلاقـات الدوليـة، كالواقعيـة بنسـخها، والليبراليـة بأنواعهـا المختلفـة، وحتـى الماركسـية وتحولاتهـا، فالنظريـة الكـبرى في أحـد أوجههـا ترجمـة وتنزيـل وتشـغيل لافتراضاتنـا العامـة حـول الوجـود والقيـم عـلى المجـال محـل الدراسـة بشـكل كلي، مـا يسـمح بتوليـد فرضيـات حـول التفاعـلات الجزئيـة في ظـل هـذا المجـال.

---

(3) انظر على سبيل المثال:

David A. Lake, Theory is Dead, long live theory: The end of the Great Debates and the rise of eclectism in International Relations, European Journal of International Relations, 19(3) (2013) , 567-587.

إنّ غلق هذه النافذة أمام الأسئلة الكبرى في سبيل التركيز على توصيف الارتباط بين متغيرات مختلفة، والبحث في تأثيرها إحصائيًا دون تبرير نظري كافٍ، قد يكون مفيدًا في مرونة تتبع العلاقات السببية، وتجاوز قيود وحدود تنظيرية غير مبررة في أحيان كثيرة؛ إلا أنه أيضًا يشير إلى صلابة رفض التعامل مع الأسئلة الكبرى وتقديم إجابات بديلة لها.

طبقًا لما سبق، يُتوقّع أن تزدهر الحركة الأفقية في التخصص وتنحسر الحركة العامودية، أي أننا بصدد تعزيز لانتشار سطحي يربط بين متغيرات في حقول فرعية في التخصص دون تبرير عميق لهذا الارتباط، لذلك سيذبل حقل نظريات العلاقات الدولية المسؤول عن هذه الحركة العامودية التي تربط تفسيراتنا لواقع العلاقات الدولية بالجذور الفكرية والافتراضات الأساسية المحيطة بهذا التفسير، كالسيادة الإنسانية، المصلحة الوطنية، العقلانية الأداتية، التقدم المادي، السعي للقوة، طبيعة النفس البشرية، وغيرها من الافتراضات التي كانت تسمح لنا نظريات العلاقات الدولية الكبرى- ولو على مضض- بالنظر في جذورها الفكرية من خلال أعمال هوبز، لوك، ميكيافيللي، كانط، روسو، جان بودان، وغيرهم، التي أسست للمساهمات المعاصرة في إطار النظريات الكبرى، كأعمال كينيث والتز، روبرت كوهين، أليكساندر ويندت، ستيفن والت، وجون مارشيمير، الأخيرين على الرغم من تطويرهما لنسختين متنافستين في إطار الواقعية؛ إلا أنهما اشتركا في كتابة بحث بعنوان: «التخلي عن النظرية: لماذا سيكون اختبار الفرضيات التبسيطي أمرًا سيئًا لدراسة

العلاقات الدولية»[4] وكأنه نعي للنظريات الكبرى في العلاقات الدولية.

في المقابل سيزدهر أكثر وأكثر كل من حقل الدراسات الأمنية (Security Studies)، وحقل الاقتصاد السياسي الدولي (International Political Economy) كونهما الحقلين الأكثر جاهزية للعمل كبُؤَر للانتشار الأفقي السطحي للأفكار، وتجميع العوامل في سلاسل تفسيرية تربط بين متغيرات مستقلة وتابعة، يتخللها متغيرات وسيطة (Mediating)، وأحيانًا معدلة (Moderating) تنظمها نظريات متوسطة النطاق تسعى لتوصيف وتفسير تفاعلات جزئية في البيئة الدولية بعيدًا عن طموح وضعها في إطار أو خريطة نظرية نظامية لتلك البيئة.

في الحقيقة هذه السلاسل التفسيرية تطارد السلاسل الواقعية في البيئة الدولية: سلاسل التوريد (Supply Chain)، أو سلاسل القيمة المضافة العالمية (Global Value Chains)، أو شبكات الإنتاج العالمية (Global Production Networks) التي يمر من خلالها أكثر من 60% من حجم التجارة العالمية تحت إدارة الشركات العالمية الكبرى، وطمع الشركات المتوسطة والصغيرة في المشاركة بها، ومراقبة الحكومات، وأمنيات الأفراد في أسلوب حياة عصري؛ إلا أن هذه السلاسل عرضة لتهديدات مختلفة منها ما هو من صناعة الإنسان كالتسليح، بمعنى توجيهها في إطار المنافسات الأمنية، أو سوء الإدارة، ومنها ما هو طبيعي أي بيئي وصحي كما هو الحال في الأزمة الحالية.

---

(4) John J. Mearsheimer, & Stephen M. Walt, Leaving theory behind: Why simplistic hypothesis testing is bad for International Relations, European Journal of International Relations, 19(3) (2013), 427-457.

في هـذا الإطـار، سـتنصب الأسـئلة البحثيـة عـلى الأقـل في المسـتقبل القريـب حـول التهديدات/غيـاب التهديـدات لهـذه الشـبكات أو السلاسـل الإنتاجيـة، عـلى أن يكـون الجـزء الأكـبر مـن هـذه الأسـئلة مـن نصيـب كل مـن حقـلي الدراسـات الأمنيـة والاقتصـاد السـياسي الـدولي، واللـذان ستشـهد العلاقـة بينهـما بعـض التكامـل كـما هـو حاصـل في برامـج بحثيـة كالاقتصـاد السـياسي للدفـاع وتسـليح الاعتـماد المتبـادل وغيرهـما. ومـع ذلـك، سـيكون هنـاك تنافـس بينهـما أيضًـا حـول التقـارب مـع تخصصـات أخـرى ذات علاقـة أهمهـا الصحـة العامـة (Public Health) والسياسـات العامـة (Public Policy) وقـدرة كل مـن الحقلـين عـلى تطويـر برامـج بحثيـة تكامليـة مـع تلـك التخصصـات.

بالطبـع هنـاك دائمًـا المـدارس التأمليـة والتأويليـة ذات البـاع الطويـل في «التأمـل» والتـي تنـدرج أغلبهـا تحـت عنـوان «مـا بعـد الحداثـة»، إلا أنـه في رأيـي لا ينبغـي أن يُعـوّلَ عليهـا كثـيرًا في قيـادة مسـار تأمـلي وإصلاحـي حقيقـي، لعـدم اسـتقرار أرضيتهـا المعرفيـة والوجوديـة أولًا، ولتخبطهـا القيمـي ثانيًـا، فمواربـة نافـذة النظريـات الكـبرى في العلاقـات الدوليـة عـلى المسـلمات الفكريـة والافتراضـات الأساسـية لهـا لا يعنـي الوقـوف أمـام نافـذة لا تـرى مـن خلالهـا إلا العـدم.

كل ذلـك لم يمنـع هـذه المهترئـات الفكريـة مـن محاولـة فـرض تأملاتهـا القيميـة والفكريـة عـلى الثقافـات غـير الغربيـة بشـكل لا يقـل فجاجـة عـن تلـك التـي تنتقدهـا، بمعنـى آخـر، مـا تقدمـه تلـك الـرؤى يمكـن اختصـاره في التـالي: «إذا كنـت تريـد أن تتأمـل فيجـب أن تتأمـل مثلنـا، إن كنـت تريـد النقـد والإصـلاح فيجـب أن تتبـع طريقنـا، إن كنـت تبحـث عـن نظريـات علاقـات دوليـة عالميـة أو

غير غربية فسنهديك الطريق». في النهاية ستجد نفسك تابعًا للهامش الغربي بدلًا من المركز الغربي، ستجد نفسك بعيدًا عن تقنيات المجتمع الأكاديمي للعلاقات الدولية في الولايات المتحدة وبريطانيا، ولكنك ستجد نفسك تابعًا لتأملات المجتمع الأكاديمي في الدنمارك، وكندا، وأستراليا التي يتمركز فيها الباحثون المنتمون لتلك الرؤى.

ما أدعو إليه هنا هو أقلمة التأمل، عن طريق فتح نافذة على الذات، وإعادة اكتشاف افتراضاتنا ومسلماتنا الكبرى حول الحياة وتنزيلها وتشغيلها على المجال محل الدراسة، أي البيئة الدولية، بدلًا من تتبع سلاسل تفسيرية لا يستطيع أن يبرر متتبعها ما الذي يجعل السبب (العامل المستقل) سببًا، والشرط (العامل المعدل) شرطاً، لافتقارها لأطر نظرية ورؤى وجودية تنظم هذه العلاقات وتبررها. وهنا أدعو إلى إعادة اكتشاف الذات الإسلامية لإعادة الارتباط بافتراضاتنا المعرفية والوجودية، وإرشادنا إلى التزاماتنا القيمية، وإلى القضايا الدولية الأحق بالاهتمام، وكيفية التعامل معها. في الحقيقة هذه النافذة مؤصدة بعدد من الأقفال، قفل الدولة ودوائر صنع القرار، وقفل المؤسسات الأكاديمية، وقفل الجمود الفقهي، وبالرغم من ذلك، قد تحمل هذه الأزمة فرصة لفك هذه الأقفال.

# انعكاسات أزمة كورونا الحديثة في العلوم السياسية

أ.د. مصطفى بخوش

# انعكاسات أزمة كورونا الحديثة في العلوم السياسية

أ.د. مصطفى بخوش

## مدخل:

الملاحظ اليوم على تعاطي مختلف دول العالم مع الانتشار المتصاعد لجائحة كوفيد 19 هو ضعف أداء الأنظمة السياسية -على اختلاف إمكانياتها وتنوع طبيعتها- وعجزها في الحد من انتشار وخطورة هذه الجائحة، وهو ما سبّب أزمات متعددة تجاوزت البعد الصحي، لتكشف عن اختلالات هيكلية وقيمية مرتبطة بالفلسفة التي تقوم عليها الأنظمة السياسية اليوم، ومكانة وموقع الإنسان فيها ومنها، وهو ما سيطرح الكثير من المراجعات التي سترافقها بكل تأكيد تغيّرات كثيرة، أقلها إعادة ترتيب أولويات عمل الأنظمة السياسية وأجنداتها.

وأعتقد أن عنوان هذا الإصدار الجماعي: «**انعكاسات أزمة كورونا الحديثة على العلوم السياسية**» يطرح تحديًا عريضًا مرتبطًا أساسًا بعلاقة عملية التنظير بالواقع، ومختلف تطوراته وتناقضاته وصراعاته وأزماته تأثيرًا وتأثّرًا. فهل مطلوب من النظرية فهم وشرح وتحليل ونقد الواقع والتنبؤ بمآلاته؟ أم المطلوب هو الاكتفاء فقط بوصف الواقع وتبريره عبر الاستسلام لعلاقات القوة التي تحكمه والبحث في العلاقات السببية التي أنتجته؟ وعليه، نطرح تساؤلًا مركزيًا في هذه الورقة هو: كيف ستغير أزمة كورونا الحديثة

اتجاهـات العلاقـات الدوليـة ومسـلماته الكـبرى؟ ومـا الأسـئلة التـي سـتطرحها هـذه الأزمـة عـلى علـماء السياسـة؟

## أولًا: ما الذي نحن بصدده فعلًا؟

في ظـل توسـع وتسـارع انتشـار فـيروس كوفيـد 19، مـا نـزال ننظـر لهـذه الجائحـة غـير المسـبوقة مـن زاويـة واحـدة فقـط تتعامـل مـع الأعـراض والنتائـج (علميًـا بحثًـا عـن اللقـاح والعـلاج، أو وقايـةً عـبر تبنـي إجـراءات حكوميـة وصلـت لحـد إعـلان الحالـة الاسـتثنائية والحجـر الصحـي في كثـير مـن الـدول)، وفي مجـال ضيـق محـدد (تداعياتهـا عـلى الاقتصـاد الـدولي خصوصًـا مـا تعلـق بتراجـع أسـواق الأسـهم والبورصـات وانهيـار أسـعار النفـط)، مـع إهـمال كبـير للبحـث عـن الأسـباب والجـذور المرتبطـة بطبيعـة النظام الدولي في شـقّيْهِ السـياسي والاقتصـادي، والحقيقـة أن هـذه النظـرة تقـوم عـلى تحليـل خطـي يسـعفنا -إلى حـدٍ مـا- في الحـد مـن بعـض آثـار هـذه الجائحـة وليـس كلهـا، لكنـه لا يُجيـب عن كل الأسـئلة المطروحـة اليـوم، لذلـك أعتقـد أننـا بحاجـة لتجـاوز هـذا المنطـق نحـو تحليـل شـبكي يبحـث في فكـرة العولمـة ذاتهـا والفلسـفة التـي تقـوم عليهـا، مـن خـلال التسـاؤل بشـأن التنظيـم السـياسي والاقتصـادي الـذي أسّسَـتْ لـه، وذلـك عـبر مسـاءلة دور كل الفواعـل ورصـد كل التدفقـات، والتوقـف عنـد التقاطعـات والارتباطـات بينهـا، حتـى نسـتطيع تشـكيل رؤيـة تسـعفنا لفهـم مـا يحـدث أولًا؟ ولمـاذا حـدث ثانيًـا؟ ولِمَ بهـذا الشـكل والسرعـة والكثافـة ثالثًـا؟ ولمصلحـة مَـن رابعًـا؟

وعليه أحاجج في هذه الورقة بأننا بصدد ظاهرة تتشكّل وتتمدّد، وتحتاج منّا للتأمل والرصد، وتتطلب منا كذلك أن نوسع من عدسة رؤيتنا لها لتشمل كل المشهد، فالجائحة شملت دولًا وأنظمة مختلفة ومتنوعة، لكنها تشترك كلها في ظاهرة التنميط التي تفرضها قوى العولمة، مستندة على خطاب يقوم على مقولات تحرير التجارة وتشجيع المنافسة كآليتين قادرتين على فرض التوازن، وهو ما كشف عن اختلالات كبيرة أثبتت أن هاتين الآليتين غير قادرتين بمفردهما على ضبط قوى السوق، تلك القوى التي تحررت من ضوابط كل القيم الإنسانية لمصلحة قيمة تعظيم الربح حصرًا، ولذلك أزعم أننا نحتاج لتأمل أكبر لتجاوز الخطاب العولمي الرأسمالي السائد، والذي تروّجه المؤسسات الدولية، حيث كشفت جائحة كوفيد 19 عيوبه التي يمكن تلخيص أهمها في النقاط التالية:

1. إنّ مقولات تحرير التجارة الدولية والسوق الحرة التي تروج لها المؤسسات الدولية -كصندوق النقد الدولي والمنظمة العالمية للتجارة- لا تطرح حلولًا، بل تفرض مشكلات مرتبطة أساسًا بقيمة ومكانة الإنسان فيها، الذي تحوّل لأداة من أدوات السوق، بدل أن يكون غاية ومحور أية عملية اقتصادية، وما عجْزُ المنظومات الصحية اليوم في مواجهة انتشار عدوى كوفيد 19 بسبب نقص المخصصات المالية إلا مؤشر واضح على ذلك، والأكيد أن آليات السوق لم تعد قادرة بمفردها على ضبط قوى السوق التي تسعى لتعظيم أرباحها، على حساب التوازنات الاجتماعية والبيئية التي أصبحت هشة ومكشوفة لمصلحة إشباع النهم نحو تعظيم الربح دون غيره، لذلك

أتصور أن من أبرز سمات ما بعد كوفيد 19 هو فتح النقاش بشأن أنسنة العولمة والوقوف في وجه الليبرالية الموحشة.

2. إن العلاقة بين اقتصاد السوق والديمقراطية التي يطرحها الخطاب الليبرالي كقيم متساندة لم تعد كذلك اليوم، بسبب التناقض بين خطاب المساواة الذي تسوّق له الديمقراطية وبين خطاب تشجيع المنافسة والفروقات الفردية الذي يقوم عليه اقتصاد السوق- حسب جاك أتالي[1] - من جهة، والتناقض بين تشجيع مزيد من الحريات الفردية وبين الحاجة لممارسة مزيد من الضبط الاجتماعي من جهة ثانية. حيث كشفت طريقة تعاطي الأنظمة السياسية مع هذه الجائحة تفاوتًا صادمًا لمصلحة الأنظمة الأوتوقراطية على حساب الأنظمة الديمقراطية (نموذج الصين وسنغافورة في مقابل نموذج إيطاليا وأسبانيا والولايات المتحدة)، حيث إن الشعوب وعلى اختلاف انتماءاتها ومستوياتها الاقتصادية والثقافية تشعر اليوم أن أفرادها يتحولون يومًا بعد يوم لمجرد سلع في سوق يتعولم باستمرار، قيمتهم ليست مرتبطة بإنسانيتهم كقيمة مطلقة، بل هي نسبية تحددها آليات السوق.

3. إن الاحتجاج على الشروط القاسية التي تفرضها عولمة الأسواق، هو تحوّلٌ لظاهرة تتمدد كل يوم جغرافيًا لتشمل دولًا في قارات مختلفة، ونوعيًا بانضمام فئات اجتماعية جديدة لها، وأتوقع أننا سنشهد بعد نهاية

---

(1) لمزيد من التفصيل يمكن الرجوع لـ:

Jacquea Attali, «The crash of Western Civilization: The Limits of Market and Democracy», Foreign policy, N0107, Summer 97, pp 54-64.

انظر كذلك: منتدى الفكر العربي: المنتدى، العدد 147، ديسمبر 97، ص15.

هـذه الجائحـة احتجاجـات كثـيرة تـؤدي إلى مراجعـات كبـيرة في طبيعـة الأنظمـة السياسـية، وفي أجنداتهـا وأولوياتهـا، وفي آليـات عملهـا.

لذلـك نحـن مدعـوّون اليـوم لعـدم الغـرق كثـيرًا في الأعـراض فقـط، والتأمـل أكـثر في هـذه الحركيـات التـي نحـن بصددهـا، والتـي قـد تشـكل لحظـة فارقـة في تاريـخ الإنسـانية بإطـلاق مسـارات تحـوّلٍ في طريقـة عيشـنا المشـترك.

## ثانيًا: تأثير جائحة كوفيد 19 في العلوم السياسية

المتابـع اليـوم لتطور انتشـار وتوسـع جائحة كوفيد 19؛ يُسـجل تنامـيَ العجز في التعاطـي معهـا، والـذي لم يسـتثنِ إلا عـددًا يسـيرًا مـن الأنظمـة السياسـية التـي يمكـن حصرهـا في عـدد أصابـع اليـد الواحـدة (كوريـا الجنوبيـة، سـنغافورة، الصـين، ألمانيـا...) بـل إن حتـى القـوى الكـبرى قـد فشـلت في هـذا الاختبـار، حيـث اعتـبر الباحـث ميـكا زينكـو Micah Zenko في مقـال نـشره في مجلـة Foreign Policy طريقـة تعامـل إدارة ترامـب مـع جائحـة كوفيـد 19 «أسـوأ فشـل اسـتخباري في تاريـخ الولايـات المتحـدة»[2]. ويبـدو أن هـذه الجائحـة لم تكشـف بعـد عـن كل أسرارهـا، ومـا تـزال كثـير مـن التسـاؤلات بشـأنها دون إجابـات، ويُعـزى ذلك لشـح المعطيـات والمعلومـات، وصعوبـة فحصهـا وتصنيفهـا في عـصر البيانـات الضخمـة Big data، لكـن الأكيـد أنهـا سـتدفع الأمـور باتجـاه سـيناريوهات غـير متوقعـة ونهايـات مفتوحـة وفقًـا لنهـج غـير خطـي.

---

(2) Micah Zenko: The Coronavirus Is the Worst Intelligence Failure in U.S. History. Foreign Policy: MARCH 25, 2020. https://foreignpolicy.com/2020/03/25/coronavirus-worst-intelligence-failure-us-history-covid-19/ (04/04/2020).

وكمحاولة أولية لقراءة هذه السيناريوهات يمكن تسجيل الملاحظات التالية:

1. يبدو أن جائحة كوفيد 19 ستزيد قناعتنا أكثر بأهمية نظرية الشواش Chaos theory ومبدأ تأثير الفراشة Butterfly Effect في فهم درجة تعقيد النظام الدولي المُعَوْلَمْ، حيث استطاع فيروس متناهي الصغر في مدينة بعيدة في الصين، أن يضع العالم أجمع على حافة الهاوية، فإذا كنا قبل هذه الجائحة نقدم المثال المعروف "رفرفة جناح فراشة في غابات الأمازون قد تنتج عنها فيضانات وأعاصير في أبعد الأماكن في أمريكا أو أوروبا أو إفريقيا" لشرح النظرية، فإن اليوم- والجميع يتابع ويرصد تطور انتشار فيروس كورونا المستجد- بات من السهل جدًا أن نفهم هذه النظرية وهذا المبدأ بتقديم المثال التالي: «عطسة مريض في ووهان بالصين قد ينتج عنها تعطيل الدراسة وغلق الحدود وأزمة اقتصادية وإعلان حالة الطوارئ في أوروبا وأمريكا وأفريقيا».

2. دفعت جائحة كوفيد 19 الديمقراطيات والديكتاتوريات على حد سواء إلى توسيع استخدام تقنيات المراقبة الإلكترونية للحد من انتشارها، وهو إجراء قد تترتب عليه تداعيات لفترة طويلة بعد احتواء الفيروس، مرتبطة أساسًا بالمبادئ التي تقوم عليها الديمقراطيات المعاصرة، لاسيما مقولات الحقوق والحريات الفردية والمجتمعية، ومبدأ الحق في الخصوصية بشكل خاص، حيث تُوفر التقنيات الجديدة للأنظمة السياسية طرقًا جديدة للحفاظ على القوة وممارسة الضبط والمراقبة المدعومة بالذكاء الاصطناعي (AI)، وهو ما يطرح للنقاش قضايا الدكتاتوريات الرقمية Digital Dictatorship على

مستوى الأنظمة السياسية والكولونيالية الرقمية Electronic Colonialism على مستوى النظام الدولي.

3. بروز حركة عودة نحو التراث وعودة اليمين المتطرف في مسار معاكس لتيار العولمة الذي يؤكد على تحول العالم لقرية صغيرة، وهي نزعة عزّزتها جائحة كوفيد 19، حيث وجدت الدول نفسها مسؤولة ومطلوبة للتدخل، لكنها عاجزة وغير قادرة على الفعل، بسبب عمليات التشبيك التي ربطت اقتصاديات الدول بعضها ببعض وتدويل عملية الإنتاج، لذلك تصاعدت النزعة الوطنية، ولجأت الكثير من الدول إلى تفعيل قوانين الإنتاج الحربي، وحالة الطوارئ للاستجابة لتحديات هذه الجائحة، وتمّت إعادة بعث قيم التضامن وروح الجماعة على حساب قيم المذهب الفردي الليبرالي الذي استغرق كثيرًا في إعلاء الفرد وحقوقه على حساب الجماعة الوطنية ومصالحها.

4. بسبب طريقة تعاطي الصين مع أزمة كوفيد 19 وقدرتها على ممارسة الضبط الاجتماعي والتحكم في حشود الجماهير بطريقة رقمية مبتكرة؛ وجدنا أنفسنا بصدد إعادة اكتشاف الصين من جديد كنموذج ناجح صاعد مقابل النموذج الغربي المتراجع، حيث عاد موضوع التنافس بين الولايات المتحدة الأمريكية بوصفها قوة مهيمنة والصين بوصفها قوة صاعدة للنقاش، خصوصًا فيما يتعلق بفكرة حتمية الصدام بين القوتين من عدمها، اعتمادًا على مقولة فخ ثيوسيديتس التي طرحها غراهام أليسون[3]، التي تؤكد على متلازمة القوة الصاعدةrising power syndrome -وهي هنا

(3) انظر: غراهام أليسون، حتمية الحرب بين القوة الصاعدة والقوة المهيمنة، تر: إسماعيل بهاء الدين سليمان، (بيروت: دار الكتاب العربي 2018).

الصين التي تبحث عن تأكيد الذات- ومتلازمة القوة الحاكمة ruling power syndrome -وهي هنا الولايات المتحدة الخائفة من تراجع مكانتها- حيث ينشأ فخ ثيوسيديتس Thucydides Trap الذي قد يدفع نحو مواجهة بين القوتين لن تكون بالضرورة عسكرية، أو التركيز على صعود الصين السلمي وفقًا لمقولات تمدد القوة التي طرحها بول كنيدي[4]، حيث طرح فكرة قانون التمدد الإمبراطوري الزائد عن الحد ليشرح تراجع القوى العظمى، إذ تصبح مصالح القوة العظمى والتزاماتها العالمية أكبر من قدرتها على الدفاع عنها كلها في وقت متزامن، لتبدأ في الانسحاب والتخلي عنها، تاركة فراغًا فيها، ومقابل صعود قوى بديلة تتحيّن لحظة ملء الفراغ لتفرض منطقها الجديد، فهل نحن بصدد لحظة الصين وفرصتها لافتكاك القيادة أو المشاركة فيها على الأقل؟ وإذا كنا كذلك كيف يجب علينا أن نتعامل مع هذه اللحظة؟

## الخاتمة:

بالنظر إلى حالة الضعف التي تعاني منها جامعاتنا ومراكزنا البحثية وغياب جماعة علمية قادرة على الخوض في الحوارات التي تدور اليوم بشأن ما بعد جائحة كورونا انطلاقًا من واقع بيئتنا والتحديات المطروحة فيها وعليها، فنحن في أحسن الأحوال ننقل النقاشات السائدة في الغرب والتي تنطلق من مخاوفهم وهواجسهم وطموحاتهم المعرفية بشأن ما بعد كورونا، لذلك أزعم أننا بحاجة لجهد كبير لتفكيك هذه النقاشات وفهمها وعدم الوقوع في فخ إعادة إنتاجها محليًا بوعي أو بغير وعي، وهو في الحقيقة

(4) انظر: بول كيندي، نشوء وسقوط القوى الكبرى، تر: مالك البديري، (الأردن: الأهلية للنشر والتوزيع،ط3 2007).

فـخ كثـيرًا مـا وقعنـا فيـه- وأخـشى أننـا بصـدد الوقـوع في ذات الفـخ اليـوم- في تعاطينـا مـع واقعنـا وقضايانـا التـي تناولناهـا فقـط مـن وجهـة نظـر مـا ينتجـه الآخـرون الذيـن طرحـوا أسـئلة مجتمعاتهـم التـي تعيـش ظروفًـا غـير ظـروف مجتمعاتنـا، وتعكـس مخـاوف وهواجـس وطموحـات مجتمعاتهـم، وبالتـالي أنتجوا باجتهاداتهـم البحثيـة إجابـات للأسـئلة التـي طرحتهـا اللحظـة التاريخيـة عليهـم، والتـي هـي بالتأكيـد تختلـف عـن لحظتنـا التاريخيـة.

لذلـك أعتقـد أننـا بحاجـة ماسـة اليـوم لفتـح نقـاش حقيقـي بشـأن واقعنـا ومـا يحملـه مـن مشـكلات، وكـذا مـا يطرحـه مـن تحديـات في ظـل مـا كشـفت عنـه جائحـة كوفيـد 19 مـن عجـز دولنـا وأنظمتنـا وحتـى مجتمعاتنـا، لتتحـدّدَ وفقًـا لذلـك أولوياتنـا البحثيـة، وهـو مـا سـيجنّبنا الوقـوع ضحيـة الإسـقاطات النظريـة الغربيـة التـي أثبتـت كل مـرة عـدم تمكنهـا مـن فهـم كُنْـه قضايانـا، وتفسـير الحركيـات التـي تحكمهـا والارتباطـات القائمـة بينهـا.

أخـيرًا، أشـير إلى أن الأزمـات مثلـما تطـرح مشـاكل وتحديـات تحمـل حلـولًا وفرصًـا، والـذكي هـو الـذي يحسـن اقتنـاص هـذه الفـرص. أمامنـا اليـوم فـرص كثيرة لإعـادة هندسـة أنظمتنـا السياسـية، وتطويـر آليـات جديـدة لضبـط المجتمـع وتنظيمـه داخليًـا، وإعـادة بنـاء علاقاتنـا وتحالفاتنـا خارجيًـا، وأخـشى ألّا نكـون أذكيـاء كفايـة ونغـرق في وحـل التسـيير اليومـي للأزمـة بعيـدًا عـن أي اسـتراتيجية أو رؤيـة للمسـتقبل، فأنـا ألاحـظ أن كل مؤسسـاتنا وجهودنـا مسـتنزفة لإدارة يوميـات الأزمـة فقـط، في غيـاب أي خـط موجِّـه لهـذه الجهـود والمؤسّسـات نحـو التفكـير فيـما بعـد كورونـا.

والأكيد أن عالم ما بعد جائحة كوفيد 19 غير عالم ما قبلها، وسيشهد الكثير من التحوّلات على المستوى المحلي والدولي، لذلك أدعو إلى بلورة مشروع بحثي وطني/قومي، يطرح استراتيجية حقيقية للمستقبل، تأخذ في الحسبان متطلبات الداخل ومتغيرات الخارج، وتتجاوز الزعامات والشعارات، وتستدعي منطق الكفاءة والفعالية، وتستبعد منطق الزبونية والولاء، وتقوم على منطق الحكمة والتبصّر.